

الفردية النفسية في المشروع السيرة ذاتي لحنا مينه

Psychological individuality in the autobiographical project by Hanna Minna

د/ الأزهر الصّحراوي

كاتب وباحث في السرديات

(lazharsahraoui100@gmail.com)

جامعة 9 أفريل/تونس

تاريخ النشر: 2024-01-01

تاريخ القبول: 2023-09-19

تاريخ الإرسال: 2023-07-14

الملخص:

يدرس هذا المقال البعد النفسي في السيرة الذاتية لحنا مينه فيعرف البعد النفسي من داخل المدونة السيرة ذاتية للمؤلف ويضبط مكوناته الأساسية ويرصد تحول الفردية النفسية وتطورها عبر مسار حياتها و يُبرز قيمة البعد النفسي في بناء الهوية السردية وفي تحديد المشروع السيرة ذاتي للمؤلف.

الكلمات المفتاحية: المدونة السيرة ذاتية، الهوية السردية، الفكر الأدبي، المشروع السيرة ذاتي.

Abstract:

This article studies the psychological dimension in the autobiography of Hanna Mina. It is defined through the autobiographical blog of the author, controls its basic components, monitors the transformation of the psychological individuality and its development, and highlights the value of the psychological dimension in building the narrative identity and in defining the autobiographical project of the author.

Key words: Autobiographical blog, Narrative identity, Literary thought, Autobiographical project.

يحظى البعد النفسي بأهمية فائقة، في بناء الهوية السردية، وفي فهم حقيقتها. وتتضاعف قيمة هذا الجانب، في كتابة السيرة الذاتية، وفي قراءتها، لأن موضوعها المركزي، هو تحت صورة لغوية تعادل الشخصية الحقيقية لكتبتها. فالبعد النفسي يطفو فوق الأبعاد الأخرى، ويشف عنها في الوقت ذاته. وهو بمثابة الباب المشرع الذي يسمح بالولوج إلى عالم الهوية السردية، ويُمكن من التوغل في تفاصيلها. وهو الدليل الهادي إلى معرفة بقية أبعاد هذه الهوية، والإحاطة بكل ما يربط بينها، وتوحيدها في كيان صلب لا يقبل القسمة. ذلك أن كاتب السيرة الذاتية، لا يُعامل كل الأبعاد المكونة لفرديته معاملة واحدة، ولا يهتم بها اهتماما متساويا. بل نجده يُضمر بعض الأبعاد المكونة لهويته الفردية، ويُظهر بعضها الآخر ويبرزه لأهميته. وهذا ما عايناه بجلاء، في السيرة الذاتية لحنا مينه، التي انصرف فيها كاتبها، إلى التّبرير على بعده النفسي، في تناميّه وتطوّره، من ماضي الطفولة الأولى، إلى حاضر الكتابة والتأليف.

تروم السيرة الذاتية لحنا مينه المتكونة، من محكي طفولة نهضت به ثلاثيته⁽¹⁾، وسيرة قلمية عبر عنها مؤلفاه "كيف حملت القلم"⁽²⁾ و"هواجس في التجربة الروائية"⁽³⁾ تأسيس الهوية السردية لكتبتها، باعتباره موضوعها المحوري، من أجل أن يتأمل ذاته في مدوّنته السير الذاتية، فيتعرّف إليها، ويعرّف بها. ولقد بارّ في هذه المدوّنة على مرحلة الطفولة، التي خصّها بثلاثية كاملة، لتفصيل القول في ظروف النشأة وتكوّن الشخصية، لما لهذه الفترة من أهمية، تكمن أساسا في وفرة المعطيات المساعدة، في فهم الشخصية، والإحاطة بالعناصر المساهمة في تشكيلها. فالطفولة هي النواة الصلبة التي تشيّد عليها الهوية السردية. والطفل هو أبو الرجل، في مذهب التحليل النفسي عند فرويد. فلا يمكن تقييم حاضر الفرد والحكم له أو عليه، دون

إلمام بماضيه وفهم ظروف نشأته. وهذا ما ذهب إليه مرلوبنتي بقوله: "فإنّ فرويد بتفسيره التصرف بضرب من الجبريّة الموروثة عن الطفولة، يبيّن أنّ في الطفولة توجد حياة راشدة سابقة لأوانها"⁽⁴⁾ ولئن كان الاهتمام بمرحلة الطفولة ضروريًا، في كتابة السيرة الذاتيّة، فإنّ حنّا مينه قد ركّز اهتمامه، في بناء هويّته السردية على البعد النفسيّ، وأولاه عناية فائقة، باعتباره منسّقًا بين أبعاد فرديّته، وصانع لحمة هويّته السردية المعبرة، عن معنى وجوده الحقيقيّ، ووحدة تجربته في الحياة. فضلًا عن أنّه طاقة مغذية لهذه الهوية ومطورة لها، من طفل معطوب معدم يرى نفسه نفاية وجروا، إلى رجل فاعل ومؤثّر، وله مشروع بينه ويتواصل عبره مع غيره. فما البعد النفسيّ في السيرة الذاتية لحنا مينه؟ وما مكوّناته الأساسيّة؟ وكيف يعبر عن حقيقته؟ وما طبيعته ووظائفه؟

البعد النفسيّ عنصر أساسيّ في تركيبة الشخصية السيرة الذاتية، التي تشتمل على أبعاد أخرى، كالبعد البيولوجي والفيزيولوجي والاجتماعي... وتكمن أهميته في تأثيره العميق في الأبعاد الأخرى. إذ يفرض عليها طابعه الخاص المتسم بالتماسك والتوازن. فكم من شخص عانى من العاهات الجسدية والتشوّهات الخلقيّة، لكنّه تقبّل وضعيّته، وتحدى بقوّته النفسيّة عاهته، وحقق ذاته؟ وكم من شخص افتقر من بعد غنيّ وأذلّ من بعد عزّ، ورغم ذلك نجده متماسكا متوازنا؟ وعلى العكس من ذلك كلّ، نرى أنّ الحالة النفسيّة المضطربة تؤثر سلبا، في صحّة الفرد المعافي، وتهدّد مكانته في المجتمع. ولئن كانت الأبعاد البيولوجيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة خارجة، عن نطاق إرادة الفرد عند الولادة والنشأة، لأنّها سابقة لوجوده، فإنّه في المقابل، مسؤول عن بعده النفسيّ المعبر، عن الوعي والفعل والإرادة والاختيار الحرّ.

يُعدّ البعد النفسيّ مدخلا مهماً، لاستكناه الهوية السردية في السيرة الذاتية، لأنه يُمكن من تحليل الشخصية السير ذاتية، ومن تقويمها وتصنيفها إلى عقلانية أو عاطفية، سوية أو مضطربة، قوية أو ضعيفة، وتبعاً لذلك يُمكن إهمالها والاستخفاف بها، أو احترامها وتصديقها وتقدير جهدها، والاستفادة من تجربتها في الحياة. ولما كان هذا البعد النفسيّ مضمناً في بنية سردية تذكيرية، فإنه يُمكن من رصد نشاط ذاكرة الراوي، وقياس دقة ما يصدر عنها، ومعرفة أشكال توظيفها للمعطيات، ويساعد في فهم طبيعة الشخصية السير ذاتية، ومعرفة مسار تطورها، ومتابعة تحولاتها، والتّفاف إلى المشروع السير ذاتي، الذي تقترحه على المتلقيّ.

مكوّنات البعد النفسيّ:

يتكوّن البعد النفسيّ، في السيرة الذاتية لحنا مينه، من مجموع الأنشطة النفسية المعبرة عن أحوال الشخصية السير ذاتية، وصفاتها الظاهرة والخفية، وتصرفاتها الثابتة والمتغيرة ومواقفها وانفعالاتها... وتمتدّ هذه الأنشطة من حاضر الكتابة، إلى ماضي الطفولة. وتصدر عن ذاكرة الراوي السير ذاتي، حيث يُعيد السرد تمثيلها، في ارتباطها بالوقائع المستعادة. فما مكوّنات البعد النفسيّ في السيرة الذاتية لحنا مينه؟ وما أهميتها في بناء الهوية السردية؟

الأحاسيس (Les sensations):

من أحسن الشّيء وبالشّيء، أي أدركه بحواسّه. والحاسة قوّة طبيعيّة، لها اتّصال بأجهزة جسميّة، بها يدرك الإنسان ما يطرأ على جسمه من المتغيّرات، كإحساسه بالبرد والدّفء والجوع والوجع والدّوار⁽⁵⁾... ولئن كان الإحساس يحقّق

معرفة نسبية تتّصف بالذاتية والآنية والجزئية، فإنّه سبيل إلى بناء المعرفة العقلية، التي تنهض على التّراكم والتّفاعل والإضافة. وللإحساس أهميته الجلية في بناء الفردية النفسية بدليل قول عبده الحلو: "يقول أرسطو: لاشيء يصل إلى العقل إذا لم يسلك طرق الحواس" ولذلك يقول أيضا: "من فقد حسّا فقد علما" فالأصل إذن في نشوء المعرفة العقلية الكلية أنّها معرفة حسية جزئية، والكليات تنشأ في النفس عندما تتوافر الاختبارات المتشابهة، فتجتمع في الدّهن الصّور المتشابهة، فيضمّ الإنسان بعضها إلى بعض وينشئ منها مفهوما كليّا بطريقة الاستقراء.⁽⁶⁾ والملاحظ، أنّ مرحلة الطفولة الأولى كانت تعبيراً مكتفياً عن أحاسيس الطفل، حتّى أضحي كتلة مكتّفة من الأحاسيس المتشابهة والمتناقضة. فهو يحسّ بالخوف والجوع والوهن والبرد والوجع والخطر لغياب الأمّ. وسرعان ما يتحوّل هذا الإحساس إلى نقيضه عند حضورها. وتؤثّر هذه الأحاسيس المتداخلة في سلوكه وردود أفعاله. فيعبّر عنها بالبكاء والتّحيب والتمرّع في التّراب مرّة، وبالصّمت والدّهول والتوجّس والحزن مرّة أخرى، وبالفرح والمرح والصّفاء مرّات.

يبرز إحساس الطفل بالوحدة والضّيع والفراغ، عند الانتقال من اسكندرونة إلى اللاذقية، لوعيه بأنّه اقتلع من بيئة ثقافية تجذّر فيها، وأفاد من حيويّتها وتنوّعها الكثير. غير أنّه قلّص من وطأة هذا الإحساس بتكثيف أنشطته التواصلية وتنويعها، لتيسير اندماجه في بيئته الجديدة. ثمّ تردّد بين الإحساس بالوحدة والانكسار والأمل في المستقبل، بعد انتقاله من اللاذقية إلى دمشق، وانخراطه في مجال الصحافة وتعرّفه إلى الكتاب والفاعلين الثقافيّين. ثمّ لم يلبث، أن تفاقم إحساسه بالألم والإعياء الدّهني والضّيع أثناء تجربة غربته عن وطنه، حتّى صار يحسد الكلب، لأنّ له مأوى.

غير أنّ هذه الأحاسيس سرعان ما تبدّدت، بعد عودته إلى أرض الوطن، وحصوله على وظيفة حكوميّة في وزارة الثقافة. فساد الإحساس بالطمأنينة والاستقرار. وتعرّز إحساسه بالفاعليّة والقيمة الاعتباريّة، بعد نجاحه في أداء دوره الثقافيّ وتحقّق شهرته الأدبيّة.

الشّعور: (La conscience):

الشّعور من شعر بالشيء، أي أحسنّ به وعلم. وفي علم النّفس، الشّعور هو إدراك المرء لذاته وأحواله وأفعاله إدراكا مباشرا. وله مراتب نوردها مبنوّة، منها الإدراك، وهو الفهم والتصوّر والاعتقاد، ومنها الوجدان، وهو جملة الظواهر الانفعاليّة كالحبّ والبغض والألم واللذة، ومنها التّزوع وهو حالة شعوريّة تنتاب الإنسان كالشّوق والحزن⁽⁷⁾. تتنوّع المشاعر في السّيرة الذاتيّة لحنا مينة، إلى حدّ التّعاض. وتتكتّف في مرحلة الطفولة الثّانية وبداية الشّباب، لتعبّر عن نموّ جسمه، وتنامي رغباته، وتحوّل وعيه وضروب تفاعله مع ثقافته وبيئته، فتكشف ما استتر من أحوال نفسه، وتبرز ما خفي من فرديّته النفسيّة. فما هي إذن هذه المشاعر الفرديّة، التي تهيم على أحداث السّيرة الذاتيّة لحنا مينة؟ وما دواعي تولدها المكثّف؟ وكيف عبّرت عن طبيعة فرديّته النفسيّة في تناميتها وتطوّرها؟

تختلط مشاعر الإحباط والانكسار والنقص والانسحاق الطبقيّ، بمشاعر الأمل والاعتزاز والإعجاب والانتماء. ويتداخل الشّعور بالخوف والحزن والعار، بشعور الأمن والفرح والاعتزاز. ومن المشاعر المحوريّة المستعادة، هي مشاعر الخوف والخجل والحزن. وهي التي سيقترص عليها تركيزنا، لأهمّيّتها في إجلاء البعد النّفسيّ.

الخوف حالة شعورية، وردّ فعل طبيعيّ ينجم عن وجود خطر حقيقيّ يهدّد الذات. وقد يكون ناتجا عن خطر مُتَوَقَّع. وقد يفضي الخوف إلى المواجهة، أو إلى الهروب أو إلى الاستسلام. وقد يتطوّر فيُمسي رُهابا. وقد تتفرّع عنه مشاعر الحذر والرُّهاب والغيرة. ولقد تميّز المترجم لذاته في طفولته وبداية شبابه بالخوف الدائم، الذي ترسّب في أعماق النَّفس والدَّهن. وأضحى حالة شعورية ملازمة لسلوكه في علاقته بمحيطه الاجتماعيّ.

يتنوّع الخوف في السّيرة الذاتية لحنا مينة أنواعا عديدة. من أهمّها الخوف الخرافيّ والواقعيّ والوجوديّ. أمّا الخوف الخرافيّ فيتمثل في الخوف من العفريت، الذي يتجسّد عبر حكايات الأبوين، في صورة كائن بشوارب كبيرة، وشفاه غليظة وشعر غوليّ طويل. ويُعبّر عن ذلك بقوله: "استعرنا من حكايات الأهل عن العفريت معالم الشّخصيّة، التي ستقضّ مضاجعنا في ليالي الشتاء والظلمة المقبلين." (8) وأمّا الخوف الواقعيّ فيتجسّد في الخوف من الحراميّ، الذي يسرق الأطفال ليلا، في ذلك الرّيف الموحش، إذ يقول: "الحرامي يسرق الأطفال لذلك يجب ألا يروه." (9) وتجسّد في الخوف من المختار ذي الوجه الجامد والعين الرّجائيّة، ذلك الذي يضرب أمّه، ويتّخذ أخته رهينة، ويتوعّد والده بكلّ الويل. فما إن علم بزيارته المباغته لحقله، حتّى داهمه الخوف. فسارع رفقة أخواته إلى الاختباء خوفا، فيقول مسترجعا ذلك الشّعور: "أمّا نحن الصّغار فكنا نراقب كلّ شيء من بعيد. لم نظهر من مخابئنا خوفا منه. كانت له من خلال قصص الأمّ عنه صورة مرعبة في أذهاننا، وكلّ ما رجونا أن ينصرف بسرعة، وألا يلحق أذى بأيّ من والدينا." (10) وتأكّد الخوف من الإقطاعيّ المتعجرف في قرية "قره أغاش" في ضواحي إسكندرونة، الذي كان يجلد

الفلاحين أمام أطفالهم، ويرعبهم بسوطه وصوته، فيقول مسترجعا ذلك: "وقد خفنا منه كثيرا، وكنا نركض ونختبئ ما إن نسمع صوته." (11) ثمّ ترسخ خوف المترجم لذاته من الدّرك، وترسّب في نفسه، لما عاين جلداهم لوالده، وقسوتهم على الفلاحين. فأضحى يخافهم، ويختبئ لرؤيتهم، ولذلك يقول مسترجعا تلك المشاعر: "ولهذا، تولّد في نفسي خوف منهم مواز لكرهي لهم. بل إنّ خوفي كان أشدّ، وكنت أهرب ما إن أرى واحدا أو جماعة منهم على الطريق، وأركض إلى البيت وأغلق عليّ الباب." (12) وأمّا الخوف الوجوديّ فيتجسّد في خوف المترجم لذاته على أمّه من الموت، لطول مرضها في قرية "الأكبر" وهي مضطجعة في العراء تحت تينة، فيقول مستعيدا شعور الخوف من الموت: "ولقد داخلني قبل أن أعرف معنى الموت ذلك الهاجس الذي سيستمرّ طويلا، هاجس الخوف عليها من الموت." (13) والخوف من الموت هو شعور مربك.

ويتفرّع الخوف فروعا عديدة من أبرزها الحذر والغيرة والزّهاب. أمّا الحذر، فهو الخوف من حدوث الخطر والحرص المتواصل على تلافيه. وفي هذا السياق يقول: "لكنّ الحذر كان دائما قيّدا في عنقي." (14) وأمّا الغيرة فهي شعور مرضيّ. وقد باح المترجم لذاته، في أكثر من سياق في سيرته الذاتية، بأنّ غيرته مرضيّة وحادة: "ثمّ إنّّه بالنسبة إليّ أنا، الذي يغار من التّسيم، كان مبعثه غيرة مرضية." (15) وقد تبرّر غيرته على أخواته وأمّه، بعجزه عن حمايتهنّ من السّبي أو الاغتصاب، خاصّة، عند دخول الجيش التّركي إلى إسكندرونة، وهو ما يبرز في قوله على لسان الأم: "تريد أن يسبي الأتراك أخواتك؟" (16) أو يبرّر أيضا بخوفه من كلام النّاس، الذي يذمّ سيرة أخواته، وخاصّة الأخت الكبرى التي سلكت طريق الانحراف، لأنّ

من دواعي الغيرة الخوف من العار والعيب. ولذلك نجده يبرّر منعه أخته من استعمال أحمر الشّفاة، بسبب الخوف المترسّب في نفسه، بدليل قوله: " قالت لي : أفهم سبب تصرّفك هذا، أنت تخاف كلام النّاس. " أنكرت، لكنني كنت أخافه جدّا." (17) وأمّا الرّهاب فهو خوف غير مبرّر. ويتناقى مع منطق العقل. وقد تعلّق بخوفه من مواجهة المصير مستقبلا، إذ يقول: " وأحسب أنّ هذا الخوف انغرس عميقا في ذاتي، وهو الذي كان وراء مشاعر الانتفاء والتوجّس والقلق والاكتئاب، التي أحس بها. وهو الذي صار مع الأيّام إعياء نفسيا كافحت ضده عمري كلّهُ." (18) وإجمالا، إنّ الخوف الذي لازم شعور المترجم لذاته قد تنوّعت معانيه، وتشعبت فروعه، وتعدّدت مظاهره، واختلفت أسبابه. لكنّه ترسّب في أعماق الذات. فأضحى شعورا مركزيا في فرديّته النفسيّة.

الخجل: (La timidité)

الخجل هو العاطفة، التي تدفع المترجم لذاته إلى الشّعور بأنّه مليء بالعيوب الخلقيّة والأخلاقيّة، وبأنّه منبوذ من الآخرين، وعرضة للوصم ولالأحكام القاسية، من زملائه ومدرّسيه. والملاحظ في الخصائص النفسيّة المميّزة لهذا الطفل، هو أنّ الخجل لا يظهر في احمرار الوجه، أو التعرّق، أو صعوبة التنفّس وارتفاع دقات القلب. بل يظهر في الألم الدّاخليّ، والارتعاش والارتباك والشّعور بالاختناق والعجز. ويتجلّى في البكاء المرّ، إلى حدّ الشّرق بالدّمع. ويبرز أحيانا أخرى في تجاهل حضور الأم وإنكارها، وهذا ما تجلّى في قوله: "ويقول تلميذ عنيّ، إنّني لم أخرج من الصفّ وبقيت قابعا فيه. ويقول آخر: إنّ أمّي في الخارج بين النّساء اللّواتي يوزّع عليهنّ

الطحين، وأثما سألت عتيّ فرفضت الدّهاب إليها.⁽¹⁹⁾ ولقد دلّت هذه المظاهر المتنوّعة، على أنّ خجله لم يكن شعورا سطحيّا وظرفيّا. بل كان شعورا باطنيّا، قد ترسّب في أعماق الذات الفردية، وبسط عليها سلطانه.

ومن اللاّفت أنّ الشّعور بالخجل مبعثه الفقر العائليّ المدقع، الذي يبلغ درجة العُدم. ويتفرّع هذا الخجل فروعاً عديدة: أوّلها، الخجل من الإقامة في العراء أيّاماً طويلاً، ممّا جعلهم هدفاً، لفضول الغرباء والمارةً بدليل قوله: "كنت خجلاً من حالنا، تعيساً بسبب من وجودنا في العراء بين غرباء."⁽²⁰⁾ وثانيها، الخجل من استجداء الخبز أو الطعام، وهو في هيئة شحاذ صغير رفقة أخته، وفي يد كلّ واحد منهما صحن، وهو ما يتجلّى في قول المؤلّف: "وبخلاف ما كنّا نتلقّى به صدقات النّاس تحت تينتنا، كان شعورا مجروحاً هنا، غريبان حافيان بيد كلّ منهما صحن."⁽²¹⁾ وثالثها، الخجل من العُدم، إلى حدّ العجز عن دفع معلوم كتاب مدرسيّ. وهو ما عبّر عنه الطفل، على لسان أحد زملائه: "أهله فقراء وأمه خادم، لذلك لم يحضر القروش الأربعة."⁽²²⁾ ولذلك خجل وبكى، وفكّر في ترك المدرسة، لافتضاح أمر عائلته أمام زملائه. ورابعها، الخجل من وضعيّة أمّه وأخواته الخادِمات في بيوت النّاس، فيقول معبّراً عن قهره الاجتماعيّ: "صارت خادماً في البيوت مثل شقيقاتي."⁽²³⁾ وخامسها، الخجل من الأمّ التي تشكو فقرهم، إلى مدير المدرسة والمعلّمات، ووقوفها في بهو المدرسة مع الفقيرات، لتسلّم المساعدات الغذائيّة من الجمعيّة الخيريّة، بدليل قول الكاتب: "ولكم عانيت من ذلّ مجيء أمّي إلى ذلك البهو، والوقوف مع النّساء الفقيرات في صفّ طويل."⁽²⁴⁾ وجوهر هذا الشّعور هو الخجل من الفقر.

لقد تعدّدت المصادر المغذّية لهذا الشعور، الذي لا يمكن أن يحجب عنا مشاعر أخرى، تأتلف مع الخجل وتختلف عنه. ونعني بها الوصم والقهر الطبقيّ والشّعور بالعار. أمّا الشّعور بالوصم فيتجلّى في شعوره بالدونيّة والتقص، لما مُنع من الاختلاط بأبناء الإقطاعيّ "خريستو"، في قرية "قره أغاش" وحرّم من مشاركتهم اللّعب. وظلّ يتطلّع إليهم من تحت، وهم يمرحون في سطح الطّابق الثّاني من قصرهم الرّيفيّ. ويتجدّد هذا الشعور في المدرسة الأرثوذكسية في مناسبتين مختلفتين. أمّا المناسبة الأولى التي شعر فيها بالرّفص الاجتماعيّ والقهر بسبب فقره فهي التي أعفته فيها المعلّمة دون سواه من المجيء يوم الأحد، للمشاركة في الصّلاة بالكنيسة. وأمّا المناسبة الثّانية، التي استشعر فيها التّبذ والوصم بسبب ثوبه المرقّع وصنّده البالي، فهي لما أعفي من حضور مراسم جنازة أحد وجهاء الطائفة، بدليل قوله: "وكان يصادف أحيانا أن يموت أحد وجهاء الطائفة، فيخرج تلاميذ المدرسة في صقّين متقابلين أمام الجنازة. وكنت أعفى أيضا من الخروج، وكأّن سيري بالثّياب التي ألبسها وصنّدي البالي يفقد هذه الفخامة بعضا من أجمتها." (25) وأمّا الشّعور بالعار فمرتبط بكلّ عمل قبيح مستهجن، أو قول بذيء فاحش. ويتبلور هذا الشّعور، حينما يرى بعض الجيران يساعدون والده السّكران، في الوصول إلى البيت، وهو يعرّبد، وهذا ما يؤكّده بقوله: "كان يأتي مجرورا معربدا، ونسمع صوته من بعيد. فنخرج من البيت أمّي وأختي وأنا، ونحاول إدخاله، وهو يمتنع ويشتم." (26) ويتضخّم الشّعور بالعار، لما يرى والده قد تمرّغ في الأوحال، أو بال في شرواله من فرط سكره، ويبلغ الشّعور بالعار ذروته عندما يرى والده المخمور وهو يشتم والدته ويعتفها، فيقول مستعيدا تلك المشاعر الخائفة: "بدا لي في تلك السّاعة غريبا وكريها. بدا لي

نفاية لا يصلح لشيء، وأنّه لا يفعل سوى تعذيب الأمّ، وأنّه يجلب لنا الذلّ والعار.⁽²⁷⁾ ويبلغ شعوره بالألم منتهاه حينما يسرق والده بعض أغراض البيت، ليبيعها من أجل أن يسكر، ويعود بعدها معريدا. ويخاطب ربّه قائلا: "لماذا يا الله أعطيتني والدا كهذا الوالد؟"⁽²⁸⁾ ومن المؤكّد أنّ في مناجاة المترجم لذاته لربّه احتجاجا طفوليا على القدر، الذي ابتلاه بهذا الوالد، الذي أورثه الشّعور بالعار، ولطخ سمعة العائلة بهذا السلوك المشين. إنّ دائرة مشاعر الخوف والعجز والنقص والحجل والعار قد اتّسعت وتعمّقت وتداخلت. فأضحت مجتمعة إعياء نفسيّا، وشعورا مرضيا يحاصر فرديته النفسيّة، ويطبق عليها من كلّ الجهات، ويفتح أبواب النّفس على الحزن والإحباط.

الحزن: (La tristesse)

الحزن هو الشّعور بالألم والبؤس والعجز. والحزن في السّيرة الذاتية لحنا مينة، شعور مستعاد متّصل بالأحداث المسترجعة. ويتميّز بالألم والوجع والعجز، ويعبّر عن انكسار الشّخصيّة المحوريّة وسخطها ورفضها، لما يحدث لها من حوادث الدّهر، ولما يعترض سبيلها من عقبات. ويتكثّف هذا الحزن، فيصبح رؤية شاملة، تلقي بظلالها على هذا الكون السّرديّ المسترجع. ويطال تأثيرها كلّ شيء فيه. فنقف على تواتر المعجم الوجدانيّ الحزين وكثافته أحيانا. ويتجاوز الوصف باطن الذات الفردية وظاهرها إلى الآخرين، وهم يجسّدون الخضوع والهشاشة والضعف الإنسانيّ. ثمّ يسلّط هذا الحزن على الأطر والأحداث، فتصبح الأفضية مشاهد حزينة باكية، ولوحات سوداء قاتمة. وتسمي الأحداث دوائر وحلقات مترابطة من الحزن والكآبة.

ولا تلبث هذه الرؤية أن تستدرج المخاطب السردِيَّ إلى عوالمها. فيصاب بعدوى الحزن والشَّجن، وتنقله من تجربة حزينة إلى أخرى أشدَّ حزنًا.

لقد ورَّع الكاتب مساحات الحزن، على مراحل الطفولة والمراهقة وبداية الشَّباب توزيعاً متفاوتاً. فلئن تميَّز الانطباع العام، في مرحلة الطفولة الأولى بتكثيف الحزن وتعميمه وتعميقه، حتَّى صار كونا سردِيًّا يسيِّج الذات الفردية من الجهات كلّها، فإنَّ كثافة هذا الحزن تحفَّ في بداية الشَّباب، وتنحصر تأثيراته وتنقشع طبقاته السَّميكة، وتنفّث فجوات الأمل بفضل تنامي الوعي الفرديّ، وتصلَّب التجربة، وتطوّر الفردية النفسيّة.

يظهر حزن المترجم لذاته، في حالات التآثر والاحتقان والانكسار، بسبب الشّعور بالعجز عن حماية والده، الذي يضرب أمام ناظره: "آه يا إلهي، كم كان صعباً عليّ ومؤلماً ومهيناً أن أرى والدي يضرب." (29) أو بسبب رؤية أمّه باكية مهانة، بعد أن ضربتها زوجة الإقطاعيّ "خريستو" في حضرة بنتيها، فيقول: "ولقد تأثّرتُ لرؤية الأمّ الباكية المهانة." (30) ويظهر ثانياً في صورة الانشغال الفكريّ، والاهتمام والشُّرود، وكثرة الإطراق والتأمّل والوجوم والصَّمْت. ويعبّر عن هذه الحالة بقوله: "خفّ أكلّي، طال سهادي، قلّت سيطرتي على نفسي، بأن الشُّرود عليّ، عجزت عن التّركيز، وكادت نوبة نفسيّة تؤدي بي إلى الانهيار." (31) ويبرز ثالثاً، في مظهر سلوكيّ حركيّ، كالبكاء والعيول والتمرّغ في التّراب حزناً على فراق الأمّ، أو كمداً على موت الأخت البكماء. ويتّخذ رابعاً، شكل الألم الجسديّ بما فيه من طعم الحرقه والمرارة، أو في شكل ألم باطنيّ: "أحسّها ألماً في أحشائي" (32) وأحياناً في

شكل أرق وسهاد ورغبة عن الطعام، فيقول مسترجعا أحزانه: "كنت كثيبا وحزينا، هجري النّوم، انقطعت شهيتي للطعام."⁽³³⁾ إنّ في تنوّع مظاهر الحزن، وفي تعدّد أشكال حضوره، في شخصيّة المترجم لذاته، تأكيداً على أنّه حزن عميق شامل. تجاوز الظاهر إلى الباطن، وحفر عميقاً في أخايد الرّوح والجسد. وأطبق على العقل والمشاعر، وأظهر عجز المترجم لذاته، وعدم رضاه عمّا يحدث في محيطه الفرديّ والجماعيّ، واستسلامه لإرادة الأقدار مرّة، ولقهر المجتمع الظالم مرّة أخرى.

إنّ مشاعر الحزن والخوف والحنج والوصم والعار... قد ضاعفت من إعيائه التّفسيّ، وعمّقت من تضائل شخصيّته، وقلّصت من حجم ثقته بنفسه، وحدّت من دائرة فعله في محيطه، لينكفئ على نفسه ويرتاح إلى هدوء المقابر وصمتها، وتراوده فكرة الانتحار، بدليل قوله: "لقد راودتني تلك الأيام فكرة الانتحار."⁽³⁴⁾ وما هذا التّفكير الجديّ في الانتحار، إلّا تعبير عن ضعف صلته بالحياة، بسبب الإرهاق التّفسيّ المتواصل.

الطبع: (Le caractère)

وهو مجموعة مظاهر الشّعور والسلوك الموروثة والمكتسبة، التي تميّز الفرد عن غيره، ومن مميّزات طبع المترجم لذاته، خمس سمات قارّة، تلازمه من الطفولة إلى زمن الكتابة. وأولى السمات الحسائيّة المفرطة، التي يعبر عنها التّأثر العميق بالحدث والانفعال به وجدانيّاً وذهنيّاً، حتّى يسمي مشغلاً مرهقاً للتّفنّس. وثانيتهما الذّاكرة القويّة المركّبة، التي تحتفظ بالأحداث الهامّة، وتستعيدّها في السّيرة الذاتيّة في ارتباطها بما حايتها من مشاعر. فيقلّب أوجاعه ويجدّها، فضلاً عن أنّها ذاكرة مركّبة. فهي

ذاكرة سماعية تحتفظ بموضوع الحوار ونصّه، وذاكرة بصرية تخزن تفاصيل المبصرات، وتعيد رسمها ربما مفصّلاً دقيقاً. وثالثتها، عزّة النفس والنجسيّة والكبرياء، ومن ذلك تصميمه على مقاطعة قدّاس الكنيسة لأنّ المعلّمة أعفته لبؤس مظهره. ورابعها، الإرادة وهي قيمة إنسانية إيجابية، و طاقة نفسية محرّكة للفرد. تتمثل في إقدار الذات، على تحويل طموحاتها، إلى أهداف حقيقية وفعليّة. وخامستها، المسؤولية وهي التزام فرديّ، بأنّه يتحمّل تبعات أفعاله، التي تنبع من اختياراته الحرّة. ولقد مكّنه طبعه الحادّ وكبرياؤه واحتكاكه المبكر بعالم البالغين، من التّعويل على الذات، وتحديّ العراقيل، وامتلاك الإرادة الفاعلة. ولقد أسهمت هذه العناصر مجتمعة، في إضفاء صفتي الحدّة والجديّة على طبعه. وهذا ما مكّنه من تحديّ العراقيل، وتحقيق الذات.

المزاج: (Le tempérament)

مجموعة من الصّفات، التي يتميّز بها التّكوين العضويّ والفيزيولوجي للفرد⁽³⁵⁾. ومن الصّفات المزاجيّة للشخصيّة المحوريّة، في السيرة الذاتيّة لحنا مينة التلقائيّة. فهو يعيش تجربة حياته بعمق، ويعبّر عنها بوضوح وصدق. ومنها صفات التكتّم والانطواء على الذات، والتردد بين التّشاؤم والتفاؤل، والتوتّر وشدة التّأثر وسرعة الانفعال، والحيويّة الفكريّة والرغبة في إشباع الفضول، والاستعداد الدائم لتقبّل كلّ جديد ومختلف، والتعطش للمعرفة والتعلّم الذاتي، والديناميكيّة الاجتماعيّة، والرغبة في التّواصل والاختلاط بالناس وسرعة الاندماج. فهو في المحصلة، ذو مزاج عاطفيّ انفعاليّ، يتردد بين الحدّة والهدوء. وهذا الانفعال العاطفيّ تلقائيّ مبدع ومخصب، يصنع من أوجاعه وانكساراته عوالم أدبيّة وفنيّة.

السّلوك: (Le comportement)

إنّ المقصود بالسّلوك، هو سيرة الإنسان ومذهبه واتّجاهه، في مواجهة المواقف والحوادث العارضة. وعادة ما يوصف سلوك الفرد، بأنّه حسن أو سيّء. والسّلوك في علم النّفس: "هو الاستجابة الكلّية، التي يبيدها كائن حيّ، إزاء أيّ موقف يواجهه"⁽³⁶⁾. وقد بدا لنا أنّ سلوك المترجم لذاته، يراوح بين الانكفاء على الذات، والاندماج السّريع في الجماعيّ، مع ميل إلى التلصّص على عالم الكبار، والانخراط السّريع في هذا العالم، دون أن ننسى نزعة الاحتماء بغيره، من الأتراب والأصدقاء والمتنفّذين، فضلا عن تردّده بين الهدوء والرّصانة والمسؤولية والانفعال والتلقائيّة والمغامرة. وعموما، فإنّ سلوكه الحرّ المسؤول منحاز إلى القيم الإنسانيّة التقدّميّة، كالعقلانيّة والحرّيّة والحقّ والعدل. ونشير إلى أنّ سلوكه يتميّز بالحدّز الشّديد. فخطواته محسوبة بدقّة عالية، ولا يصرّح بأفكاره ومواقفه إلا بعد تصفيتها وغربلتها. فلم نجد له في سيرته الذاتية إشارة واحدة إلى الإسلام والمسلمين، أو إلى التّركيبة الطائفيّة في سوريّة. وهذا السّلوك يجمع ولا يفرّق، ويبني ولا يهدم.

الموقف: (L'attitude)

إنّ الموقف هو تأهّب مرتبط باستجابة محدّدة. وتتمثّل مواقف المترجم لذاته، في اتّخاذ قرارات مبدئيّة أو عمليّة، تجاه أمور عاينها وتبيّنها وفهمها، واتّخذ في شأنها قرارا محدّدا. ومن ذلك، معاداته للاستعمار ولوكلائه المحليّين ولطبقة الإقطاع، وانتصاره للعمّال والفلاحين، وللفقراء والمقهورين، بدليل قوله مخاطبا نفسه: "أنت تعرف شيئا واحدا: فرنسا تحتلّ سوريّة إذن هي عدوّة، والإقطاع حليف فرنسا إذن

هو عدوّ، وهؤلاء الملائكون الكبار ضدّ الفقراء، فإذن هم أعداء أيضا. ⁽³⁷⁾ إضافة إلى إيمانه بالقيم الإنسانية الإيجابية، ورفضه للقيم السلبية كالظلم والاستغلال، وانتصاره للفكر العلميّ التقدمي، ومناهضته للفكر المثاليّ المحافظ، وتبنيّه للاشتراكية العلمية، ومحاربه للمنظومة الليبرالية وتقديره للغة العربية، ولكلّ ما هو نيرّ في تراثه، ورفضه للعامة والابتذال وللرؤية العدمية. وعموما، تميّزت مواقفه بالوضوح والاستقرار والوجاهة. وقد آمن بهذه المواقف، وجاهر بها، ودافع عنها، وجسّدها في سلوكه، ومثّلها في فكره وأدبه.

الميلول (La tendance):

تتعلّق الميلول بكلّ ما يحبّه ويميل إليه، وبكلّ ما ينفر منه ويعدل عنه. أمّا ما يميل إليه فمتنوّع، ومتعدّد بتعدّد مجالاته وأنواعه. فنسجّل ميله إلى أنموذج المرأة القويّة، المنفلتة من القيم الذكوريّة، والمتحفّزة إلى الاستقلاليّة والمساواة. ونلاحظ تعلّقه بالرجل المتشبع بقيم الرّحولة، في الاعتماد على نفسه، وحماية من يلوذ به من الضّعفاء. فهو رجل يستخدم جرّاته وفصاحته وعقله، لحسم المواقف المحرّجة. ولا يتورّع عن استخدام قوّته أو سلاحه، في مواجهة الظلم وردعه. وأمّا ما ينفر منه، ويعدل عنه فهو الضّعف والنّدم، والجبن والتدّلل والرّياء، والغرور والطيش وانعدام الضّمير... فنقف على نفوره من المرأة الضّعيفة والتّابعة، التي تגרّس دونيّتها واضطهادها. ونسجّل مقتله للرجل الضّعيف، الذي تقوده غرائزه وأهواؤه، ويعلّق فشله على مشجب الظروف والأقدار. ونؤكّد ميله إلى العزلة والتأمّل في الذات والآخر وفي عناصر الطبيعة، فضلا عن التخيّل والتصوّر، والحلم والافتراض والتّفكير. ونؤكّد ميله

إلى سماع الحكايات المشوّقة، التي لا تخلو من بطولات فردية أو جماعية وأحداث مؤثّرة، وتعطشه لأجواء الفرح والاحتفال، والانتشاء بالموسيقى والغناء والرّقص.

تميّز الكاتب في محكيّ طفولته، بالميل إلى العزلة والتأمّل، مدفوعا بثقل أزمته النفسية إلى الاختلاء بنفسه. ولهذه العزلة وجهان: وجه سلبيّ هو الهروب من النّاس إلى الذات، حماية للنفس من الأذى وخوفا من الشر. ووجه إيجابيّ يتمثل في التأمّل الذاتي، وإعادة تقييم العلاقة مع الآخرين، واستخلاص الدّروس والعبر، واتّخاذ قرارات ترمي إلى المصالحة مع الذات. ومن اللافت، أنّ المترجم لذاته كان يتردّد في عزلته، على فضائين متناقضين، لهما تناقض الحياة والموت. إذ كان يستهويه الجلوس على ضريح رخاميّ في المدرسة، بدليل قوله: "مجلسي على ضريح رخاميّ نقشت عليه كلمات يونانيّة."⁽³⁸⁾ أو يختلي بنفسه في المقبرة الفرنسيّة بإسكندرونة، التي كان ينجذب إليها، فيقول مسترجعا: "كانت المقبرة تستهويني فأرتاح إلى صمتها."⁽³⁹⁾ وكثيرا ما يكون مدفوعا إلى تلك العزلة، بسبب ضيقه بالمدرسة الأرثوذكسية، التي اعتبرها سجنا بغيضا: "وربّما كنت أجد هناك مجالا للتأمّل، فأخلو إلى نفسي، التي أوحشها هذا السّجن المدرسيّ."⁽⁴⁰⁾ وأمّا البحر رمز الحياة والامتداد والاتّساع، فقد مثّل له ملجأ ومهربا ومتنفّسا، يلوذ به كلّما ضاق ذرعا بالبيت: "وكنّ أهرب إليه في الأصباح والأصائل."⁽⁴¹⁾ ويستفيض في تفصيل الدّوافع، التي تغريه بالبحر وترغّبه إلى نفسه، كالاطمئنان والابتهاج والأنس. وهذا ما عبّر عنه بقوله: "كنت أمضي إليه مشوقا بشعور من اللذة.... نفسي ترتاح وتطمئن إلى مداه المترامي، وتبتهج بزرقته، وتأنس للطيور المحوّمة فوقه."⁽⁴²⁾ إجمالا، إنّ العزلة تعمّق شعوره بالراحة، وتيسّر اندماجه في الوجود، بما فيه من مظاهر الحياة والموت، فضلا عمّا يحقّقه

التأمل، باعتباره رياضة ذهنية ونفسية من تعميق التواصل مع الذات، وتنميتها، وفتح آفاقها على الممكن.

من الثابت أنّ المشاعر والأحاسيس تؤثر في الجسم، لاقتها بتغيرات الدورة الدموية في الخلايا والأعضاء، ولذلك يحمّر الوجه في حالة الفرح والمسرّة، وبيض أو يصفرّ في حالة الألم والحزن. وترتبط حالة الخوف مثلاً، بزيادة ضغط الدم وسرعة دورته. فيتحمّز الجسم كلّهُ للهجوم أو الدّفاع، بدليل قول الكسيس كاريل: "كما أنّ الحالات العاطفية تؤثر في الغدد كلّها، وذلك بزيادة دورتها أو نقصها. إنّها تنبّه أو توقف الإفرازات، أو تحدث تعديلاً في تركيبها الكيميائي".⁽⁴³⁾ وتلقّي طبيعة المشاعر والانفعالات والاضطرابات بظلالها، على صحّة الجسم وصفاء الدّهن. وما يمكن تأكيده، هو أنّ المشاعر المستعادة في السيرة الذاتية لحنا مينة قد تنوّعت وتوالدت وترسّبت، في أعماق النّفس والدّهن، حتّى أضحت حالة شعورية، متردّدة بين الوجود والعدم، وبين العقل والجنون. غير أنّ حزنه حزن عاقل رصين، وجهته العقل وليس الوجدان. وخوفه بحث ذاتي عن الخلاص ممّا هو فيه. وخجله مخضب يثير في نفسه الأسئلة، التي تؤهله للنّضج المبكر. ولقد أنْهك الرّاي السّير ذاتي ذاكرته، باسترجاع وقائع حياته القاسية. وأقصى حدود الإنهاك ما يرافق تلك الأحداث المستعادة، من أحاسيس وجدانية مكثفة تفيض على الوقائع ذاتها، وتغمرها بأوجاعها، وتغرقها في مسحة من القتامة. فيتحوّل بتأثيرها، كتلة كثيفة من الأحاسيس المركّبة. وإن كنّا لا ننكر وجهها الإيجابي، والمتمثل في تعميق إحساسه بذاته، ومضاعفة انتباه حواسّه، وانتشاله من حالة التبلّد والميوعة، وإعدادة نفسياً وذهنياً للتفاعل مع بيئته.

لقد ساهمت حالة التأمل والعزلة، في خلق نواة فرديته النفسية، التي ترمم انكسار الذات، وتقاوم التدمير المسلط عليه، وتلتمس لنفسها الخلاص. ومكنته ميوله من اقتحام أهوال الحياة باكراً، ومن اختبار خيرها وشرها، ومن خلق نماذج بشرية إيجابية، اقتدى بها، ونسج على منوالها في تحقيق الذات. ورسخ فيه طبعه الحادّ وكبرياؤه وفضوله المعرفي، ملكة التعويل على الذات، وتحدي العراقيل، وامتلاك الإرادة الفاعلة. ولقد نجحت ذاكرة الراوي السير ذاتي، في إضاءة ما خفي من طبعه وسلوكه، وإبراز ما ترسّب من مشاعره وميوله، في عمق أعماق النفس. ونجح السرد الاستعاديّ في عرض العناصر المعبرة عن حقيقة ذاته. ولقد تعاضدت هذه العناصر وتشابكت، لتشكّل مجتمعة فرديته النفسية، وبعدا محورياً من أبعاد هويته السردية.

تجليات الفردية النفسية:

إنّ الهوية السردية هي بؤرة الأحاسيس والمشاعر، والميول والمواقف والسلوك، باعتبارها الموضوع المحوريّ في السيرة الذاتية، لذلك، فإنّ هذه العناصر المكوّنة للبعد النفسيّ، تنحصر في شخصية الكاتب وفي محيطه القريب، ولا تتعدّاه إلى غيره من العناصر الفنية الأخرى. ولعلّ مهمّة الباحث، تكمن في رصد مواضع تجمع هذه المكوّنات، في الشخصية المحورية، ومعرفة مصادر توالدها، وتحديد درجات حضورها ومستويات ظهورها، وطرق اشتغالها، لإثبات حقيقة وجودها وعمق تأثيرها. فأين تتجلّى مكوّنات الفردية النفسية، في السيرة الذاتية لحنا مينه؟ وما أهميّة هذه المظاهر في التعبير عن حقيقتها؟

من العناصر التي يتجلى فيها البعد النفسي بوضوح الهوية الاسمية والألقاب، التي علقت به والخصائص الجسدية والخلقية، والمظهر الخارجي، والانتماء العائلي والمحيط الاجتماعي...

الهوية الاسمية:

للإسم الذي يحمله الطفل تأثير نفسي ينشأ معه. فيشعره إماماً بالانتشاء والاعتزاز، وإماماً بالانكفاء والشعور بالتقص. ومن الواضح أنّ المولود الذي زين فراش الزوجين: سليم حنّاً مينة، ومريانا ميخائيل زكور والصبي الوحيد، الذي جاء بعد ثلاث بنات، بشهادة قول الكاتب: "لأبي الصبي الوحيد بعد ثلاث بنات والصبي الذي سيبقى وحيداً، لأنّ إخوته اللاحقين سيموتون." (44) سيحمل اسم جدّه لوالده. وسيحظى ببعض التبجيل والاهتمام، في بيئة تفضل الذكور على الإناث. ونرجح، أنّه كان راضياً بهذا الاسم، لقوله: "كذلك صرت أحمل اسمي." (45) وأسباب الرضا تعود، إلى ما في هذا الاسم من قداسة دينية في بيئة مسيحية، ولما ينطوي عليه من تقدير، لمكانة جدّه لأبيه، في نظر أولاده وأحفاده.

الألقاب:

ورد في معجم لسان العرب أنّ اللقب هو النّبز، وهو اسم غير مسمّى به (46). والمقصود باللقب ما يطلق على الشخص من الأسماء، للتعريف أو التشريف أو التحقير. ومن ذلك تلاقب القوم، أي تسابوا بالألقاب. وفي السيرة الذاتية لحنا مينة استرجاع لبعض الألقاب، التي لُقّب بها، فيضيق ببعضها مرة. ويعتزّ ببعضها الآخر مرة أخرى. ومن الألقاب التي يضيق بها، ويتأثّر لسماعها، وهو بين زملائه في

المدرسة الأرثوذكسيّة هي "يا ابن السّكران"، فيقول مسترجعا ظروف مناداته بهذا اللّقب: "في اليوم التّالي ذهبت إلى المدرسة باكرا وحيدا. كنت أنطوي على شعور بالانكسار. وكنت أمضغ مرارة وذلاً. وعندما التقيت الأولاد جعلوا يسخرون منّي، وناداني أحدهم (أنت يا ابن السّكران)." (47) فألمه هذا اللّقب، وعمّق وحدته وعزله، وضاعف من عذابه النّفسيّ، وهو ما يؤكّده بقوله: "فهربت منهم، ولذت في ركن حديقة المدرسة، وفي الحصّة التّالية لم أخرج من الصفّ." (48) إنّ تأثره لهذا اللّقب المعبر عن التّحقير والوصم، يُعمّق من كرهه لوالده، ويضاعف من شعوره بالدّونية، لارتباطه بأب لا يتورّع عن ارتكاب المعاصي والآثام. ونجده يذكر في موضع آخر، من السّيرة الذاتيّة تلقيبه بـ"الشّخاذ الصّغير" فعندما هدّه الجوع في حي "الصّاز"، مد يده إلى طفل يأكل خبزا، مُستجديا قطعة، فيقول مسترجعا ذلك: "على غير رادة منّي، وبهزة قسريّة من رأسي، أومأت إليه طالبا قطعة الخبز. وعندئذ صاح الطفل بأعلى صوته مناديا الأولاد أن يأتوا، ويروا إلى هذا الشّخاذ الصّغير." (49) فيضيق بهذا اللّقب. وقد استبدّ به الشّعور، بالهوان والانكسار والعار. وهو ما يتجلّى في قوله: "كان عارا في نظري، وقد أخفيتّه، وبقيت لصيق الجدار مسبل الجفون من هوان وانكسار، منكمشا كمن ضبط في جرم" (50). لئن كانت بعض هذه الألقاب تعمّق آلامه النّفسيّة وتشعره بالخجل والعار، لأنّها تهدف إلى تحقيره أخلاقيا واجتماعيا، فإنّنا نعرّ في سيرته الذاتيّة على ألقاب أخرى تشريفيّة، تشعره بالفخر والتميّز. ومن أهمّها "أديب البحر" الذي يعبر عن احتفائه بالبحر، في كتاباته الروائيّة، أو بـ"الأديب المغورك"، نسبة إلى تأثره بسيرة "ماكسيم غوركي" في الأدب والانتماء. فيشرفه هذا اللّقب، لما فيه من التزام، بقضايا الشّعب والثّورة.

فضلا عن لقب: "كاتب الكفاح والفرح" الذي لُقِّب به بعض النقاد، لما يتضمّنه من ربط وثيق، بين نضال الإنسان وغاياته السّامية.

ما يمكن تأكيده، هو أنّه كان راضيا بالاسم الذي يحمله، لما فيه من بركة وقداسة وتكريم، وبأنّه كان يتأثّر بالألقاب، التي تطلق عليه سلبا وإيجابا، لما تتضمّنه من شحنة تحقيريّة مرّة، وتمجيدية وتشريفية أخرى. فهذه العلاقة الحيويّة بين الاسم والمسمّى، التي تعبّر عن التّفاعل التّفسي، بين الفرد ومحيطه الاجتماعي تدفعنا إلى التّساؤل، عن طبيعة تأثّره بخصائصه الجسديّة والخلقيّة ومظهره الخارجيّ. فهل كان مرتاحا نفسيا لصورته الجسديّة، ولملامحه المميّزة ولمظهره الخارجيّ؟ وإلى أيّ حدّ ساهمت هذه الخصائص، في إبراز فرديّته النفسيّة؟

الخصائص الجسديّة:

قصّدا بالخصائص الجسديّة، شكل الجسم وحجم القامة، والتّكوين العصبيّ والاستعداد العقليّ وصفات الصحّة والمرض، وكلّ الخصائص الوراثيّة، التي ورثها عن أبويه وأسلافه، ولذلك فإنّ العناية بصحّة الطفل، لا تبدأ من لحظة الولادة. بل ترتدّ إلى ظروف الحمل، وصحّة الوالدين واستعدادهما الجسديّ والتّفسيّ، لهذا القادم المنتظر، مثلما يؤكّد ذلك إلكسيس كاريل بالقول: "وتأتي فرديّتنا كما نعلم إلى الوجود، عندما يدخل الحيوان المنويّ إلى البويضة. ولكن عناصر الذّات تكون موجودة قبل هذه اللّحظة، ومبعثرة في أنسجة أبويننا وأجدادنا وأسلافنا البعيدين جدّا. لأنّنا مصنوعون من مواد آبائنا وأمّهاتنا الخلويّة."⁽⁵¹⁾ لقد سبقّت الإشارة إلى، أنّ ظروف حمل الأمّ به، قد اتّسمت بالإرهاق والمعاناة والخبية، إثر عودة العائلة إلى

اللاذقية، بعد تشرد دام أعواما في "أرسوز" و"الأناضول"، دون أن ننسى حالة الخوف والرّهاب، من إنجاب أنثى رابعة في بيئة ذكورية. ولذلك كانت متوتّرة، داعية ربّها، أن يهبها غلاما. لقوله، على لسانها: "لقد حبلت بك بالرجاء كما يقال في الكنيسة وبالآلام وضعتك."⁽⁵²⁾ وحينما بُشّرت بهذا الغلام نسيت آلامها.

لم تكن ظروف ولادته - في الحقيقة - أفضل من ظروف الحمل به. إذ أصيب والده، بذبحه صدرية حادة ألزمته الفراش طويلا. فاضطرت أمّه، إلى العمل مرضعة، في بيت ثريّ من أثرياء اللاذقية، مثلما يورد ذلك على لسانها: "كنت مضطّرة لتركك في البيت، عند أخواتك الصّغيرات، والذهاب إلى ناس أغنياء في اللاذقية، لأرضع ابنهم الذي من عمرك."⁽⁵³⁾ وقد يعود هذا الهزال إلى نقص حليب الأمّ، أو إلى غياب الطعام أحيانا، إذ يقول على لسان الأمّ، وهي تخاطبه مدعورة: "لكنك يا صغيري نحيل جدّا، ولا طعام لدينا، لتتغذى وتصبح قويا."⁽⁵⁴⁾ وقد يرتبط هزاله بتغذيته السيئة، التي تعتمد غالبا، على الخبز اليابس الذي يُرشّ بالماء، كي يصبح في متناول الأكل. وقد تضطرّ الأمّ أحيانا إلى جمع الحشائش، وتغليتها في الماء، وتقديمها إليه وأخواته، لإبعاد شبح الجوع، فيسترجع ذلك قائلا: "هذه الوجبة الحشائشية، كانت خدعة غذائية بائسة."⁽⁵⁵⁾ لكنّ تأثيراتها سلبية نفسيا وصحيا.

لكن حصر المترجم لذاته هزاله، في أسباب وراثية وغذائية، فإننا لا نستبعد، تأثر بنيته الجسدية بالأمراض العديدة. فقد أصيب بداء الجرب في ريف "السويدية"، بدليل قوله: "وانتشر الجرب فأصابتنا العدوى. ظهرت البثور على أجسامنا، والتهبت بالحكة، وتبقّعت."⁽⁵⁶⁾ ولم يلبث أن أصيب بالبرداء والحُمى في قرية "الكبد"،

بسبب الإقامة في العراء أيام الحرّ. فيصوّر حالته الصحيّة قائلا: "وكنّت، في الضّحى، أزحف إلى الشّمس الحارّة وأنا أرتجف من البرد، برغم حرارتها، حتّى إذا مرّت نوبة البرداء تلتها نوبة الحمّى، وأزحف ثانية باتجاه أمّي المريضة، وأندسّ إلى جانبها في الفراش تحت شجرة التّين، ووراء الستّارة التي تحجبنا عن عيون السّابّلة." (57) ونجده في مواقع أخرى من سيرته الذاتية، يشكو من مرض الملاريا، الذي سيلازمه وأخواته أعواما. وسيخلّف في أجسامهم تخريبا مزمنّا، إضافة إلى إصابته بمرض التّيفوئيد، الذي سيزيد من ضعفه وهزاله.

تنوّعت أمراض المترجم لذاته، وتعدّدت أسبابها. فمنها ما يعود، إلى سوء التّغذية ونقصها، ومنها ما يعود إلى القذارة، وانعدام الشّروط الصحيّة، وبعضها راجع إلى تعرّض الجسم الغضّ للحرارة والبرد. وبعضها الآخر راجع، لأسباب بيئية كالرطوبة والتلوّث ولدغ البعوض والحشرات. وبذلك اجتمع عليه الجوع والمرض. فازداد جسمه ذبولا وهودا وهزالا: "وكنّت طفلا نحिला كشمعة تنوس، حتّى لتكاد تنطفئ، مع كلّ هبة ريح." (58) وصادرت الآلام والأوجاع فرحه بطفولته .

وقد لا يعود هزاله وذبوله وبطء نمّوه، إلى أسباب الجوع وضعف الغذاء، وتعدّد الأمراض وحدها. بل أيضا، إلى العلاج البدائيّ المعتمد في بيئته، ومن ذلك التّداوي بشرب البول. ومّا باح به المترجم لذاته أنّه حينما أصيب بالملاريا، في قرية "الأكبر" نصّحهم فلاّح عجوز، بأن يُسَخّروا بولهم في بطيخة بعد تجويفها، وأن يشربوه صباحا. وقد ورد ذلك في قوله: "نصّحنا فلاّح أن نسخّر البول في بطيخة مجوّفة" (59) وقد التزم الوالدان بهذه النصيحة. وأجبرا الأبناء المرضى صباحا، على

شرب بولهم، أملا في العلاج: "لقد شربنا بولنا - نعم وأسفاه حدث ذلك- شربنا بولنا."⁽⁶⁰⁾ ولم يتوقّف الأمر، عند هذه الوصفة البدائية. بل تتابعت الوصفات، مع كلّ مرض مستجدّ. فقد وُصف البصل لعلاج الرّمذ، الذي أصابه وأخواته في قرية "الأكبر". وهكذا تنوّعت الوصفات، وتعدّدت طرق العلاج البدائية، التي ضاعفت من أمراضه، بدل معالجتها.

إنّ السّمة المميّزة لبنيته الجسديّة هي الهزال، الذي لازمه منذ طفولته الأولى إلى شبابه: "كنت صغير الجسم قياسا إلى التلاميذ الآخرين. وكنت هزيلا إلى درجة مفرطة."⁽⁶¹⁾ فتبدو بنيته الجسديّة لمن يراه، في تنافر صارخ مع سنّه، لقوله مصوّرا حالته الجسديّة، على لسان عمّه، الذي رآه للمرّة الأولى، بعد عودتهم إلى اللاذقيّة: "ماذا صنعتم للولد؟ وجهه مثل بروة الصّابون، الخاتم يدخل في خصره، كيف ذلك وهو في سنّ الشّباب؟"⁽⁶¹⁾ ويبدو أنّ هذا العيب الجسديّ، يكتسي أهميّة بالغة، في الكشف عن فرديّته النفسيّة، لحضوره المكثّف في سيرته الذاتيّة، ولتواتره في مواضع عديدة، من مراحل الطفولة والشّباب... ولئن بدا هذا الهزال الجسديّ مسألة عرضيّة مرتبطة، بأسباب وراثيّة جينيّة وغذائيّة وصحيّة وبيئيّة، فإنّه يعبر في باطنه، عن أزمته النفسيّة العميقة. لقد أضحت بنيته الجسديّة الهزيلة، مصدرا من مصادر الشّعور بالضعف والعجز. فدفعته إلى الانكفاء على الذات، وحرّمته من الانخراط في بعض الألعاب، التي تحتاج إلى قوّة عضليّة، لقوله: "كنت أعرف نقطة ضعفي، وهي نحول جسمي. فأنا لا أستطيع أن أكون مبرّزا في المعارك، التي تنشب بين أولاد حيّنا وأولاد الأحياء الأخرى."⁽⁶³⁾ ثمّ أرغمته هذه الوضعيّة الجسديّة، على الهروب والعزلة والخوف. لأنّه -في الحقيقة- عاجز عن مواجهة أترابه، الذين يشتمونه، فيقول مسترجعا هذا

الإحساس: "وناداني أحدهم: أنت يا ابن السّكران: فهربت منهم، ولذت في ركن حديقة المدرسة. وفي الحصّة التّالية لم أخرج من الصفّ، لكن واحدا من رفقتي انتصر لي. وعند الظهر، بينما كنّا في الطريق إلى البيت صفع ذلك الذي أهانني."⁽⁶⁴⁾ ولقد اضطرّه هذا الهزال الجسديّ، إلى الاحتماء بغيره من أبناء الحيّ، لعجزه عن حماية نفسه. ولم يلبث أن تفاقم إحساسه بالضّعف الجسديّ، إلى حدّ الرّهاب. إذ يرى نفسه شابّا عاجزا في المستقبل، عن ممارسة أيّ عمل يحتاج إلى جهد عضليّ. وقد دفعه هذا الإحساس، إلى قطع علاقته الغراميّة الأولى بحبيبته رقيقة. فيقول مسترجعا هذا الهاجس: "وجسمي النّاحل لا يكفل لي، أن أعمل عملا يحتاج إلى قوّة العضل."⁽⁶⁵⁾ فأشعره ضعفه الجسديّ بأنّه، لا يقدر على العمل اليدويّ، وبأنّه عاجز عن إسعاد حبيبته وحمايتها. وانتهى إلى أنّ المرأة لم تخلق لأمثاله.

إجمالا، إنّ هذا الضّعف الجسديّ، في السّيرة الذاتيّة لحنا مينه لم يحضر لذاته. وإنّما كان موظفا، للتعبير عن شعوره بالخوف والعجز عن حماية نفسه وأهله. وكان في النّهاية بابا مشرعا يُطلّ عبره الباحث، عن أزمة نفسيّة عميقة، يمرّ بها المترجم لذاته، ويستعيد تفاصيلها. ولئن كان هذا أمر الخصائص الجسديّة، فكيف عبّرت خصائصه الخلقيّة عن فردّيته النفسيّة؟

الخصائص الخلقيّة:

لقد تعاطلت المشاعر السلبية، وتوالدت، لتعمّق أزمتها النفسيّة. فقد أضيف الشّعور بدمامة الخلقة، وعدم الارتياح للملامح وجهه، إلى ضيقه بصغر قامته مقارنة بسنّه، وإلى هزاله المرضيّ الشّدديد. فمن خلال استقراءنا للسياقات، التي أشار فيها

باحترام إلى خصائص خلقته، يُمكن أن نؤكد شعوره بقبح وجهه لصغر حجمه. فهو أشبه ما يكون بـ"بروة الصّابون"⁽⁶⁶⁾ على حدّ تعبير عمّه. ويُضاف إلى صغر الحجم الشّحوب والضمّور وذبول الشّفتين، فيقول مستحضرا ملامحه: "إنّني فتى بينطال قصير عتيق وقميص أزرق مرّقع، ووجه شاحب ضامر، وشفّتين واجفتين."⁽⁶⁷⁾ ومتى اجتمع الصّغر والشّحوب والضمّور في الوجه قُبْح، في نظر حامله. وانتفى جماله، وهذا ما يؤكّده بقوله: "لم أُنح جمالا في الوجه."⁽⁶⁸⁾ ويضاف إلى الشّعور بدمامة الخلقة، شعوره بقبح الصّوت لبحّته وضعفه، ممّا يعيقه عن بيع الصّحف، لقوله: "بيع الصّحف يحتاج إلى صوت جهير، ومن سوء الحظّ أنّ هناك عاهة في صوتي."⁽⁶⁹⁾ ولا شكّ في، أنّه قلق بسبب نظراته الجائعة والوقحة، الّتي تعرّي الآخرين، وتنفذ إلى أعماقهم، وتربك النّساء، اللّائي تعرّف إليهنّ. وهذا ما أكّده بقوله، على ألسنة بعضهنّ: "وكم مرّة ستقول لي النّساء في حياتي المقبلة: لا تنظر أنت في عيوننا. وأسأل لماذا ؟ ويجبن: في عيونك دعوة إلى الخطيئة."⁽⁷⁰⁾ ولم ينس شعوره بالألم، بسبب الحلاقة العشوائيّة لشعره، لأنّه قُصّ في غير عناية. فأمسى مدعاة للسّخرية والاستهزاء، ومجلبة للحزن والبكاء، فيقول مسترجعا تلك الحالة: "وكان الوالد قد أخذني قبل يوم إلى الحلاق في «كيدون» الأرمن. فقصّ لي شعري قصّة ضحك عليها الأولاد، وأبكوني لأجلها."⁽⁷¹⁾ ومن المرجّح، أنّ هذا الاضطراب التّفسي يُردّ إلى إهمال العناية بشعره، مقارنة بأقرانه في المدرسة. فنراه يُهمّل مرّة فيطول، أو يُقصّ مرّات في غير عناية، فيصبح مصدر ألم نفسيّ.

إجمالا، لم يكن سعيدا بصغر جسمه وهزاله، وبملامح وجهه وصوته ونظراته. والملاحظ، أنّ علاقته بجسده في أعلى درجات التوتّر، وأنّ هذا التوتّر سيعمّق شعوره

بالنقص والدونية من جهة، وسيدفعه من جهة ثانية، إلى البحث خارج حدود فرديته الجسدية، عما يُحقق تفرده وتميّزه، وعما يشعره بالرّضا والاعتزاز، وعن كلّ ما من شأنه أن يعيد إليه توازنه النفسيّ، ويشعره بالرّضا عن الذات.

المظهر الخارجي:

تميّز مظهره الخارجيّ بالحفا، في سنوات طفولته الأولى، لقوله: "وكان عليّ طوال ثلاثة أعوام، أن أظلّ بلا حذاء أيضا." (72) وثبّر حالة الحفا أولاً، بأنّ العائلة غير قادرة على توفير الحذاء، وثانياً بأنّها لا تراه ضرورياً في الحياة اليومية. وتعتبر انتعاله لأسوأ أنواع الأحذية وهو الصّندل، حكراً على بعض الزّيارات العائلية، أو المناسبات الدينية والاحتفالية، أو الدّوام المدرسيّ، بدليل قوله: "ألْبستني ثوبا خاطته بالإبرة، وصندلا باليا هرّ من رجلي في الطريق." (73) ولم تكن حالته مع العراء، بأفضل من حالته مع الحفا. فقد تميّزت ملابسه بالحقارة والعشوائية، لأنّها من صنع الأمّ فيقول: "وأنا في بنطال قصير أسود، خاطته لي أمّي مع قميص قصير الأكمام." (74) إضافة إلى حقارة هذه الملابس، وبدائية فصالتها وخياطتها، فهي قديمة مرقّعة، تلبس في كلّ الظروف، وتصلح لكلّ المناسبات، وتعمّق هذه الملابس شعوره بالنقص والدونية، لإحساسه، بأنّها لا تناسب سنّه وهو شابّ. فتتضاعف معاناته النفسيّة، ويسترجع ذلك متألّماً: "أنا رجل، برغم أنّي أردي بنطالا قصيرا، ليس لديّ البنطال الطويل، لا أملك ثمنه." (75) ولم يكن هذا الألم النفسيّ بسبب البنطال، الذي لا يناسب سنّه فحسب. بل لأنّه لا يلائم طبيعة فصل الخريف، ولا يصلح للنشاط الذي يضطلع به. ولم ينس ارتبائه النفسيّ بسبب غرابة ملبسه، وهو

يرتاد المدرسة في يومه الأوّل. إذ ألْبسته أمّه فستانا فضفاضاً، أشبه ما يكون بالجلابية. فيقول مسترجعاً صورته: "ولقد ألْبستني الوالدة فستاني، وهو أشبه بجلابية." (76) لقد عمّق مظهره الخارجيّ أزمته النفسيّة، وضاعف من شعوره بالدونيّة والوضاعة، ولم يزد سوى إحساس مضاعف بالألم والمعاناة.

لا شكّ في أنّ، علاقته المتوتّرة بجسده، ورفضه لصغر بنيته الجسديّة، ولهزاله وملامح وجهه، ولصوته ونظراته ومظهره الخارجيّ، قد أدّت مجتمعة، إلى شعوره بالنقص والدونيّة، وإلى إحساسه بالتّفاهة. ولذلك، اهتزّت ثقته بذاته إلى حدّ الانفصال، لأنّه في تقدير ذاته ضعيف، إلى حدّ العجز عن حماية ذاته، وقبيح إلى حدّ البشاعة، وبأنّه تافه المظهر، بل إنّه نفاية، لا تصلح أن تكون بين النّاس، أو على مقربة منهم.

تحوّلات الفردية النفسيّة:

قد يبدو ظاهريّاً، أنّ عزلة المترجم لذاته كانت هروبا من مجتمعه، ومداواة لأوجاعه النفسيّة وأعطابه المتعدّدة، غير أنّ المتمعّن في الأسباب العميقة لهذه العزلة يدرك، أنّها كانت بدافع مقاومة العنف الرّمزيّ المسلّط عليه، لتدميره والإجهاز عليه. إمّا بدفعه إلى الموت أو الجنون. وهو ما يؤكّده بقوله: "بتّ على ما يشبه اليقين أنّي سائر إلى إحدى حالتين: الموت أو الجنون." (77) ومن أهمّ أدوات المقاومة القراءة والتأمّل والتّساؤل الفكريّ. أمّا القراءة المكثّفة والمنظمة فهي تجسيد، للتّواصل الهادئ والعميق مع صنّاع الفكر والفنّ، وطريقة لبناء العقل والروح، وتنمية لمعارفه المتواضعة، بعد حصوله على الشّهادة الابتدائيّة. وقد أفرط في قراءة الكتب، حتّى

أشفقت الأمّ على عينيّه، بدليل قوله على لسان والدته: "وقد نختني أمّي عن كثرة القراءة في ضوء فانوس الكاز. وخافت على عينيّ".⁽⁷⁸⁾ وأما التأمل فهو رياضة فكريّة، وسبيل إلى تقليب المشاغل والقضايا من وجوه عديدة، بهدف إدراك حقائقها، واتخاذ القرار المناسب في شأنها. وأما التساؤل الفكريّ حول قضايا الفقر والقهر والثورة فهو السبيل الأمثل، إلى المعرفة الدّقيقة والجيدة بهذه المشاغل. ومن هذه الأسئلة الحارقة قوله: "كنت قد تعلّمت منذ وعيت الوجود أننا فقراء. وأنّ فقرنا لا مثيل له. وتقبّلت هذا الواقع، ونقمت عليه. ولشدّ ما تساءلت عن سبب فقرنا، ولشدّ ما حاولت الوالدة، أن تقنعي أنّ ذلك من الله. غير أنّنا كنّا نحبّ الله مثل غيرنا. ولم نكن نؤذي أحدا مثل السيّد وزوجته. والوالدة تصلّي كلّ ليلة، فلماذا يبقينا الله فقراء وأفقر من الجميع الذين نعرفهم؟"⁽⁷⁹⁾ لم تنحصر أسئلته في قضايا الفكر. بل تعدّتها إلى البحث عن الطريقة المثلى الكفيلة بتغيير الذات الفرديّة، وتأهيلها للانتفاض من رمادها، وتجاوز قصورها. وهو ما عبّر عنه بقوله: "لا بدّ أن أبدّل نفسي. إذن يا الله كيف يبدّل الإنسان نفسه؟"⁽⁸⁰⁾ ولما كان معنى التّغيير عنده عمليّة موضوعيّة تتجاوز الفرد إلى الجماعة، فقد كان يُسائل نفسه، بحثا عن الخطط الكفيلة، بتبذير بذور التمرد والثّورة في اللاّذقيّة، التي تشهد ركودا سياسيا واسترخاء نضاليا، في مواجهة الاستعمار والإقطاع مقارنة بإسكندرونة. فيقول مسترجعا تحفّزه النّضاليّ: "كنت أعمل، أفكر، أخطّط، أتصوّر نفسي أنا الغريب عن اللاّذقية، التّحليل أكثر من كلّ فتياها، البائس إلى حدّ استجلاب الرّثاء، مبشّرا في هذه المدينة بما كان يبشّر به "الطيّون" في مدينة اسكندرونة. وكانت الحيرة التي أتخبّط فيها هي

كيف أبدأ؟ وفي أيّ عجينة أضع خميري؟" (81) وقد كانت حيرته سبيلا إلى تغيير الأوضاع الثّوريّة في مدينته.

لم يكن المترجم لذاته وهو يلوذ بالعزلة، هاربا من مواجهة ظلم مجتمعه، أو مهزوما من الدّاخل، بسبب توتره التّفنسي العميق. بل كان يقاوم ذلك التّدمير المبرمج، ببناء ذاته الفردية، بناء معرفيا متأنيا، في كلّ خطوة يخطوها، في مشروع تطوير فردية. وفي هذا السّياق يقول مسترجعا فضائل العزلة وأسرارها: "ولكم طوّفت في البيت والشّارع والمدرسة منفردا منذ كنت طفلا. وفي حالة كهذه فقط، كنت أحسّ بالطمأنينة والرّاحة والعدوبة. وينفسح المجال لعالمي الدّخلي أن يستعرض، يتأمّل، ويبيّن نفسه على مهل." (82) ورغم أنّ، قدرات هذا الطفل على مقاومة أسباب تدميره، كانت أكبر من طاقاته العقلية والنّفسية، وأنّ الكثير من هذه القدرات لم يخلقها واقع الحياة. بل خلقها قلم الكاتب، الذي نفخ فيه من روحه، ليرتقي به إلى مستوى الأنموذج والبطل والقُدوة، في مشروعه السّير ذاتي، الذي سنشير إليه لاحقا. فإنّ هذا الطفل قد بدا بلا طفولة، لأنّ ظروف الحياة القاسية قد صادرت طفولته، فنضج قبل أوان النّضوج، وهرم قبل أوان الهرم، فيقول في هذا السّياق متسائلا: "هل يفكّر الطفل قبل أوان التّفكير؟" (83) ومن مظاهر الطرافة، أنّ ما ذكرناه مفصّلا، في ما يتعلّق بامتلاك أدوات بناء ذاته الفردية، وآليات تحصيل الوعي، كالتّفكير والتأمّل والتّساؤل قد أجمله الكاتب في قوله: "كنت مفرطا في التّفكير بقدر ما أنا مفرط في الحساسية، ومفرطا بالتّساؤل بقدر ما أنا مفرط في التأمّل في حالنا وحال النّاس من حولنا." (84) وأنّ هذه الآليات المعرفية، التي أضحيّ يختبرها في عزله وحياته اليومية، لم تكن مطلوبة لذاتها، أو استجابة لتurf فكريّ. بل كانت موظفة لفهم طبيعة واقعه

الاجتماعي والطبقي. ومن مظاهر هذا الوعي الاجتماعي الدقيق، القدرة على تحديد جبهة الأعداء وجبهة الأصدقاء، وهذا ما يؤكده بقوله: "أنت تعرف شيئا واحدا: فرنسا تحتل سورية إذن هي عدوة، والإقطاع حليف فرنسا إذن هو عدو وهؤلاء الملاكون الكبار ضدّ الفقراء فإذن هم أعداء أيضا." (85) وتحديد جبهة الأصدقاء وجبهة الأعداء، مرحلة حاسمة في بناء الوعي المقاوم.

لقد كشف المترجم لذاته إذن، عن الأدوات المعرفية، التي مكّنته من تحصيل المعرفة الجيدة والدقيقة بمجتمعه، وعن موضوع المعرفة ومجالها. فإذا هو واقع الشعب السوري في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن المنصرم، الذي تميّز بالاحتلال الخارجي من جهة، وبمعاناة الفقراء من عمّال وفلاحين من جهة أخرى. وهذا الوعي المستجدّ، هو الذي سيخفف بعضا من توتره النفسي الناتج عن رفضه، لجسده ومظهره الخارجي ومحيطه العائلي والاجتماعي. وهو الذي سيحدث نوعا من المصالحة مع الذات، التي وجدت توازنها في قدراتها الفكرية. ممّا ينبئ بأنّ المترجم لذاته صاحب مشروع فكريّ، جوهره تحرير الفرد والمجتمع، من الجهل والفقر والاستغلال والقهر والهيمنة الخارجية. فما هي الأسباب العميقة الكامنة وراء تطوّر فرديته النفسية؟ وما المراحل التي استغرقها هذا التطوّر؟ وما المضامين الفكرية التي تضمّنها مشروعه السيرذاتي؟

ما من شكّ إذن، في أنّ طبيعة هذه الفردية النفسية ذات محتوى فكريّ واجتماعي تحرّريّ، وأنّ هذا الوعي الفكريّ المستجدّ، قد استوعب تلك التوتّرات العنيفة، التي أحاطت بفرديته النفسية، وعمّقت شعورها بالانسحاق والتّضؤل، في

أوج مراهقتها، وكادت تؤدي بها إلى الموت أو الجنون. وقد نجح هذا الوعي الفكريّ الوليد، في لجم ذلك التوتّر التّفسيّ، وفي توجيه أعراضه، كالعزلة والقلق والاكتئاب والتأمل والإحساس المرهف وجهة إيجابيّة. محورها بناء الذات الفردية بناء معرفيًا عميقًا، عبر إدمان القراءة، بدليل قوله: "أما قراءتي فليست للتسلية، ولن تكون كذلك، التسلية كانت واردة. المتعة كانت أساسا في قراءتي. لكنني كنت أنشد أيضا المعرفة."⁽⁸⁶⁾ وهذا الوعي المعرفيّ مكّنه أولا، من فهم واقع المجتمع السّوري، واستكناه أسباب تخلفه وفقره وجهله واستغلاله واحتلاله. وساعده ثانيا، في تحديد موقعه الطبقيّ من هذا المجتمع، وموقفه من هذا الموقع، الذي يشغله ضمنه. وحدّد له ثالثا، دوره ووظيفته وطبيعة المهامّ المطروحة عليه.

إنّ هذا التطوّر الفكريّ اللافّ في وعي المترجم لذاته، الذي لم يكن وليد طفرة فكريّة، أو من قبيل الصدفة أو المعجزة. بل كان نتيجة تراكمات معرفيّة كمّيّة، وممارسة ميدانيّة واقعيّة، قد خبرتها فردية المترجم لذاته. وإجمالا، يمكن أن نرجع عوامل تطوّر الفردية النفسيّة، إلى أسباب ذاتيّة وموضوعيّة. أما الأسباب الذاتيّة فقد تفرّعت إلى أسباب نفسيّة وسلوكيّة وفكريّة. تمثّلت الأسباب النفسيّة في كلّ ما تعلّق بإرادته واستعداداته وقابليّته للتطوّر. وتحسّد في كلّ الأعمال، التي أنجزها أو بادر إلى القيام بها من تلقاء نفسه. وتظهر في الإحساس بالتّضج المبكر، والسعي إلى تحقيق المصالحة مع ذاته، بواسطة المعرفة والفكر وتحديّ ظروف القهر بالإقبال على التعلّم: "وفي هذا الكوخ وهذا الحيّ تعلّمت القراءة والكتابة."⁽⁸⁷⁾ وعبر الشّعور القويّ بالانتماء إلى الفقراء، وبالحقد الطبقيّ البين، على رموز الاستغلال والقهر والقمع. وفي هذا الإطار، يُفهم كرهه الدّفين لرجال الدّرك، لقوله: "لقد كرهت الدرك يومها

بأشدّ ممّا كرهتهم، يوم ضربوا وأطلقوا النّار على الفلاحين، وقتلوا زنوبة في قرية الأكبر." (88) وبقابليّته للتطوّر وباستعداداته للتّضحية، وبلعب دور مستقبلّي، في مواجهة الظلم الاجتماعيّ: "ومنذ المدرسة قام في ذهني أنّي واحد من أولئك، الذين سيساعدون بشكل ما على إزالته." (89) إضافة إلى إحساسه بالاستقلاليّة، وبتنامي مسؤوليّته الذاتيّة، تجاه نفسه وعائلته ومجتمعه: "شاعرا على هذا النّحو أنّي كبير، وأنّ الحياة التي أسلمتني إلى عذاباتها مبكرا، قد خلقت مّيّ فتى منذورا للعدالة مستقبلا." (90) وبأنّه صبيّ يتحقّز، لمقاومة رموز الظلم والقهر: "وكان الاستثمار والاستغلال والضّرب والتّعذيب والاحتلال الأجنبيّ وحكم الأغوات في الرّيف، وحكم الأسياد في المدينة، يولّد في نفسي رغبة في المقاومة." (91) وهكذا ترسّخت المبادئ التّضالّيّة في نفسه منذ يفاعته.

وتمثّلت الأسباب الفكرية، في المثابرة على التعليم والتعلّم والتفوّق الدّراسي، وتنظيم مطالعته وترشيدها والاستفادة منها، بما يساعده في فهم ذاته ومجتمعـه. وهذا التفوّق الدّراسي أهله ليكون عريفا لزملائه في المدرسة الرشديّة: "صرت عريفهم نتيجة تفوّقي عليهم، ونجاحي بالمرتبة الأولى." (92) وأنّ هذا التفوّق الدّراسي قد جعله مقرّبا من بعض المعلّـمات. وقد تنبّأت له إحداهنّ، بالتميّز والعظمة: "وضعت يدها على شعري، وقالت: ستكون عظيما في المستقبل." (93) وتمثّل الأسباب السلوكيّة في الخصال الحميدة، كالوداعة ونكران الذات، واحترام الآخرين ومساعدتهم، بدليل قوله: "فكنت محبوبا من أكثرهم، وقادرا على أن أساعدهم في الدّراسة واللّعب، وأبذل هذه المساعدة بطيبة خاطر، وفي كلّ الأوقات." (94) إضافة إلى انخراطه في الحياة الجماعية، ومشاركة الأصدقاء التسكّع، في الرّيف أو في أحياء

المدينة، كما تميّز سلوكه بالفضول، والتلصّص على عالم الكبار، عبر حرصه على متابعة نشاط العمّال، في الحديقة العموميّة، وهم يخوضون، في أمور الأزمة الاقتصادية العالميّة وتأثيراتها: "وقال كلمة قبيحة ضحك لها العمّال المستلقون على العشب في الحديقة، وخجلت لها أنا. فتواريت وراء أحد الأولاد وتابعت ذلك النقاش، الذي يدور بينهم." (95) ومن أسباب وعيه المبكر بقضايا مجتمعه مشاركته سكّان حيّ "الصّار" في تخريب مزرعة الخواجة "إسكندر"، لتحرير أكوام القمامة مصدر رزقهم، من السيّاج الحديديّ، الذي ضربه حولها. وغير بعيد عن ذلك، فقد كان يتابع بعض الاجتماعات الشبّانية في حديقة المنشية. ويواكب التحركات الاحتجاجيّة والاحتفالات العماليّة. ولقد أهّله الصّفات الفردية، كالتعطش للمعرفة والتعلّم الدّاتي والحيويّة الفكرية، والدّيناميكيّة الاجتماعيّة، ونكران الذات ومساعدة الآخرين، للتطوّر من وضع نفسيّ سلبيّ، إلى آخر إيجابيّ.

وأما الأسباب الموضوعيّة فتتمثل خاصّة، في استفحال أوضاع المجتمع السّوريّ، الذي يرزح تحت الاحتلال الفرنسيّ. ويعاني عمّاله من استغلال كبار المستثمرين الأوروبيين، ومن طول ساعات العمل وضعف الأجور وغياب أبسط الحقوق، فضلا عن قسوة الإقطاعيين على الفلاحين، الذين يعتبرونهم ملكا من أملاكهم. لذلك كانوا سببا مباشرا، في استنزاف جهودهم، وفي ما هم عليه من فقر وقهر وجهل. ولقد أتاح له ظروف تشرّد عائلته في القرى والمدن السّوريّة معاناة، تلك الظروف القاسية، التي كان عليها عموم المجتمع. وخاصّة العمّال والفلاحين، والباعة الجوالين والحمالين وسائر المهمّشين. واختمرت مظاهر المعاناة في ذهنه. وليس غريبا أن تنشأ من رحم هذه الظروف القاسية ردود أفعال احتجاجيّة تجاه الإقطاعيّ، كتمرد "زّوبة"

وبعض الفلاحين، الذين هاجموا مخزنه بسبب الجوع. ولذلك يستعيد هذا المشهد الملحمي الذي عاينه قائلا: "وزنوبة التي ارتقت السقف، وأشعلت النار في المخزن بعد أن هربت من الدرك تحرض الرجال على أن يفعلوا، وتطلب منهم أن يحرقوا السيد أيضا ولا يدعوه يهرب." (96) أو في احتجاج بعض سكان حيّ "الصّاز" على الإجراء الحكومي القاضي بغلق حديقة المنشية دونهم، وحرمانهم من متنفسهم الطبيعي الوحيد، فيسترجع ذلك بقوله: "لقد احتلّ سكان الحيّ الحديقة بما يشبه القوة." (97) وهكذا ترسّخت الظروف الاجتماعية القاسية للشعب السوري، في ذاكرة المترجم لذاته، وترسّبت في كلّ ذرّة من كيانه، فاستحضر تفاصيلها واستثمرها، في كتابة سيرته الذاتية، المضمّنة في سيرة عائلته، وفي سيرة الشعب السوري.

ولقد أثمرت هذه الظروف الموضوعية القاسية، ولادة حركة عمالية سرية، تشكّلت في المنافي والسجون. وسعت إلى تنظيم العمال في نقابات، وتكوينهم إيديولوجيًا وسياسيًا، لطرد الاستعمار الفرنسي، وتخليص الشعب السوري من الجهل والفقر والقهر... وسرعان ما انتشرت هذه الحركة العمالية الوليدة، في المدن الكبرى والأحياء الفقيرة، وانضمّ إليها الشباب المتحمّس، للنضال ضدّ المحتلّ ووكلائه. وقد تابع المترجم لذاته في حيّ "الصّاز"، اجتماعات رواد الحركة العمالية في إسكندرونة، تحت الأشجار وفي الأكواخ المهجورة. وأعجب بزعيم هذه الحركة: "غير أنّ إعجاب عبده حسني بفايز الشّعلة انتقل إليّ." (98) وتحولّ هذا الإعجاب، إلى انبهار بهذا الشابّ العماليّ، الذي يواجه فرنسا والإقطاع ولا يخاف: "وكان فايز نفسه، الذي دخل السّجن ولم يخف، نوعا مبهما من البشر قادرا وجريئا وساحرا في نظري." (99) وما لبث أن تحوّل هذا الإعجاب والتعاطف، إلى انخراط ميدانيّ في هذا النضال

العماليّ. فتجشّم قراءة الكراسات الحزبيّة والتّشريّات العماليّة، وتبليغ محتوياتها للعمالّ الأُميين المستجدين في هذه الحركة. ولقد تحمّل جسامه هذه المسؤوليّة، وهو في غرارة الصّبيّ. فازداد ثقة في التّفنّس وشعورا بالمسؤوليّة، رغم يفاعته، وهذا ما يؤكّده بقوله: "ويقول لي إنّّه ليس ابن مدرسة كي يعرف كلّ ما في هذه الكتب، وأنّ عليّ أنا ابن المدرسة أن أعرفها وأشرحها لأهل الحيّ، وأنّه لذلك يعلّق أملا كبيرا عليّ".⁽¹⁰⁰⁾ ولا يمكن أن نهمّل العامل التّربويّ، الذي رسّخ في ذهنه حبّ العمالّ، لأنّهم يأكلون خبزهم بجهدهم، وتقدير الفلاحين والتّعاطف مع معاناتهم وفقرهم المدقع، بدليل قوله على لسان الأمّ: "ومن أجل ذلك أريدك أن تحبّ الفلاحين. فهم فقراء مثلنا".⁽¹⁰¹⁾ ويضاف إلى ذلك ما رسّخته المدرسة في ذهنه، من تحريض على طلب العلم والمعرفة، ومن ترغيب في المثابرة والانضباط والتنظّم الذاتيّ. فضلا عمّا اضطلعت به المنظمة العماليّة، التي انتمى إليها من تطوير لشخصيّته، تطوير نفسيّا ومعرفيّا، ومساعدته في تنمية ذاته، وتجاوز شعوره بالعجز والنّقص، عبر تعزيز ثقته بنفسه، وتحويله من طور الوهن والضعف، إلى القوّة والإيمان والفعل، وفي هذا السّياق، يستعيد ما نبّهه إليه أحد المشرفين على تكوينه، بقوله: "وقد قال لي "فايز الشّعلة" مرّة: "لا تشك من ضعفك الجسديّ، هذا لا شيء، القوّة في القلب. هناك تكون أولا تكون. الشّجاعة تأتي مع الإيمان، الموت نفسه يأتي مع الإيمان".⁽¹⁰²⁾ ولقد اقتنع بأنّ القوّة الحقيقيّة هي في جوهر الفرد وأعماقه.

إنّ هذا التّطوّر، الذي أضحت عليه فردية المترجم لذاته، لم يكن وليد طفرة أو معجزة. بل كان ثمرة جهود فردية، تمثلت في مثابرته على التعلّم، وانحيازه للفقراء، وتواصله مع مجتمعه، ومواكبته لتطوّرات بيئته، وحرصه على الاستفادة من واقع.

وكان أيضا نتيجة ظروف موضوعية، تمثلت في تفاقم الظلم والفقر والجهل، وبرز حركة جماعية منظمة، هدفها تخليص الشعب السوري مما هو فيه. فأفاد من هذا السياق التأثير ما يبني فرديته النفسية، ويرتقي بها.

تطور الفردية النفسية:

تتجلى مظاهر التحول، في الفردية النفسية لحنا مينه، في بداية إحساسه بشخصيته واستقلاليتته الفردية وهو يتخطى المراهقة، إلى مرحلة الشباب. فنجدته يفكر، في تحمّل مسؤولية العائلة، في ظلّ الحيات المتتالية لوالده، وييدي مواقف فردية مختلفة عن مواقف العائلة، كتشبهه بالبقاء في إسكندرونة، ورفضه المغادرة إلى اللاذقية. وقد برزت مشاعر الإحساس بالشخصية، خاصة عند انفصاله عن أترابه ورفاقه في إسكندرونة، واستعداده لمواجهة مصير جديد في اللاذقية. وقد بدأ هذا الإحساس بالاستقلالية وهم على متن الحافلة، فيقول: "كما أعطتني المسافة بين إسكندرونة واللاذقية إحساسا بعالم مستقلّ داخل الأوتوبيس الذي نقلنا." (103) ثمّ منحه الخروج مع العائلة من اللاذقية إلى قرية "ح" الإحساس بالشخصية، لأنّه يرى نفسه مسؤولا عن حماية أمّه وأخوته، من العيون التي تلاحقهم في الطريق، فيقول: "لكنّ مسافة الطريق بين اللاذقية وقرية "ح" أعطتني إحساسا بالشخصية." (104) إنّ هذا الإحساس بالشخصية وباستقلاليتها عنصر مهمّ ومحوريّ، في مسار تطور هذه الفردية النفسية، التي تحوّلت في هذه الظروف، من طور الانسحاق والدّوبان في ضمير المتكلّم الجمع "نحن"، إلى طور جديد تحسّ فيه بفرديتها. وذلك راجع. في نظرنا. إلى مكانته المعرفية في بيئة أمية، وإلى تحمّل مسؤوليته العائلية، في ظلّ وجود والد لا يعول عليه، إضافة

إلى تحمّل مسؤوليته النّضاليّة، في غياب أيّ سند حزبيّ يبيّنه الجديدة: "أنت تعرف شيئا واحدا. فرنسا تحتلّ سورّيّة إذن هي عدوّ، والإقطاع حليف فرنسا إذن هو عدوّ، وهؤلاء الملاكون الكبار ضدّ الفقراء فياذن هم أعداء أيضا، وهذه الأفكار عرفت في اسكندرونة وقالوا لك إنّ لها حزبا هناك. لكنك في اللاذقيّة لم تقع له على أيّما أثر." (105) ومن الملاحظ أنّ الإحساس بالشّخصيّة، يتدعّم في ظروف الغربة والإحساس بالوحدة. ومن المظاهر المعبّرة عن تطوّر هذه الفردية عزمها على التّأقلم السّريع مع الواقع الجديد. والتّأقلم مظهر من مظاهر ذكاء المترجم لذاته، الذي يقول مستحضرا هذا القرار الفرديّ: "وأنّ عليّ منذ اللّحظة أن أعيش واقعا جديدا، ومدينة جديدة، واتّخذ أصدقاء جددا." (106) ومن أهمّ مؤشّرات تطوّر الشّخصية المحوريّة، القدرة على الملاحظة الدّقيقة، لكلّ ما يتعلّق بواقعه الجديد. ومن أهمّها، أنّ المرأة في اللاذقيّة تحظى بقوة الشّخصيّة، وتحيمن أحيانا على الرّجل القويّ المتنفّد، وأنها تبسط نفوذها وتأثيرها، على حيّ بأكمله. وساهمت دقّة الملاحظة، في مراجعة بعض مواقفه تجاه المرأة. واعتذر من أخواته الخادما، واعترف لهنّ بالفضل عليه، لأنّه عاش وتعلّم بفضل تعبهنّ، فيقول معترفا بأفضالهنّ عليه: "ولم أكن أعرف أنّي أنا الفم الجائع. كنت أفئات من جسد أخواني، من طفولتهنّ، من حريتهنّ. وأنّي تعلّمت القراءة والكتابة في الصّفوف الابتدائيّة الوحيدة من جهلهنّ." (107) وعدّل موقفه الأخلاقيّ من المرأة المتحرّرة، التي تتهم في شرفها، في مجتمع ذكوريّ بدويّ، مثل اتّهام زوّبة بالعهر. فيقول مصوّرا نبلها الإنسانيّ: "وتعالت ككلّ أنثى، من حمى الخسة الاجتماعيّة للمجتمع الرّجالي الخسيس، إلى ذروة المجد الإنسانيّ." (108) ثمّ راجع خجله من الفقر، الذي عانى من وطأته أعواما، متأثرا في ذلك بموقف أحد العمّال: "ولسوف يقول لي

أحد العمال يوما: "الفقر ليس عارا. بل خجلك من كونك فقيرا هو العار. تعلّم أن ترفع رأسك أمام الأغنياء، وأن تقول لهم إنك أفضل منهم، لأنهم أغنياء بسبب فقرك." (109) كلّ هذه المراجعات، التي شملت مشاعره الطفولية، ومواقفه العاطفية والأخلاقية، دلّت على وعيه بتناقضاته الداخلية، وحرصه على تجاوز هشاشته النفسية، ومثالية أفكاره، وشعوره بالضعف والخوف واليأس والرهاب. واعتمادا على هذا التقييم الدقيق لنقائص الذات، أعاد بناء فريته بناء نفسيا وذهنيا، على أسس نضالية صلبة، قوامها إعادة تربية الذات، على الشجاعة ومواجهة الظلم الاجتماعي والاقتصادي، والجرأة في التعبير عن الأفكار، التي يؤمن بصحتها، والتضحية بنفسه من أجل تحقيقها، والتحلي بالصبر في توعية الناس وتحريضهم على تغيير رؤسهم، والصّابة في الدفاع عن المبادئ والقيم، التي يناضل من أجلها. ونتيجة لهذا النقد الذاتي العميق، والاستعداد الجيد لتجاوز نقائصه، يقرّ في النهاية بحدوث تغييرات هامة في أعماق نفسه، بدليل قوله: "منذ ذلك اليوم تبدّلت. كنت انطوائيا فصرت اجتماعيا، كنت متشائما فصار لديّ بعض الأمل." (110) وبذلك كلّ اكتسب المترجم لذاته نضجه الفكري ووعيه النضالي.

إنّ وعيه بأسباب ضعفه، وحرصه على مراجعة مشاعره ومواقفه، واقتحامه مجال الواقع الاجتماعي بكلّ تناقضاته وصراعاته، حوّله من فردية مثالية حاملة، إلى شخصية واقعية متوازنة وناضجة، في تعاملها مع الوقائع والأحداث. وتحوّلت تبعا لكلّ ذلك، من المهادنة إلى المواجهة، ومن ردّ الفعل إلى الفعل المنظم، ومن الإيمان بالمبادئ الثورية، إلى ممارستها وتجسيدها في سلوك ملموس: "أخيرا تجرّأت على الكلام، قلت ما يجول في خاطري، كسرت حاجز الرّهبة في نفسي." (111) إنّ

مظاهر التطور الإيجابية، التي بدت على الفردية النفسية، كإحساس بالاستقلالية، والتّعويل على الذات، والشّعور بالمسؤولية، والقدرة على مراجعة المواقف ونقد الذات واختبار الأفكار والقيم، وخوض تجربة الحياة بكلّ عنفها وصدماتها، قد هيأت هذه الفردية، للانخراط في تغيير الواقع وتطويره بواسطة الكلمة، وهي أرقى أدوات الفعل الحضاريّ، وأخطرها على الإطلاق.

مراحل تطوّر الفردية النفسية:

من الملاحظ، أنّ هذا المسار التطوّريّ المتصل بالفردية النفسية لحنا مينه، الذي يمتدّ من زمن الكتابة إلى الطفولة الأولى، قد مرّ - في نظرنا - بأربع مراحل أساسية مترابطة. أمّا المرحلة الأولى فهي مرحلة الضّمور النفسيّ، والتّضاؤلّ والضّيع. وقد تميّزت بهيمنة ضمير المتكلّم الجمع، وضعف تواتر ضمير المتكلّم المفرد "أنا"، وذلك لانشغاله بالحديث عن حركة عائلته في المكان، بحثا عن لقمة العيش، بدليل قوله: "كانت عربة بحصان واحد وبعجلات حديدية، كتلك التي جئنا بها إلى القرية، قبل ثلاثة أعوام، وفي وسط هذه العربة وضعنا أمتعتنا القليلة، وتجمّعنا فوقها حول الأمّ، ومعنا أختنا الصّغيرة الضّرية." (112) ولتركيزه على السلوك الجماعيّ، الذي يتماهى فيه سلوكه الفرديّ بسلوك أخواته ويتأثّر ردّ فعله بتقليد ردود أفعالهنّ: "ثمّ تعنيّ لنا أو تعنيّ معنا، فإذا نمنا في مواضعنا غنّت لنفسها." (113) أو تعبيره عن مشاركته أبناء الفلاحين اللّعب والتشرّد، بدليل قوله: "وصادقنا أولاد الفلاحين، صرنا نخرج حفاة مثلهم، ونشرّد في الحقول كما يفعلون." (114) وقد اتّسمت هذه المرحلة عموما، بتقبّل ثقافة المجتمع وقيمه، وبتقليد سلوك الوالدين، في المجالات الثقافية والاجتماعية، وبترديد

أقوالهما ومعتقداتهما وانطباعاتهما، حول الكون والإنسان، وبمحاكاة سلوك أخواته وأقرانه، وبردود الأفعال السلبية، تجاه تصرفات بعض زملائه ومعلميه.

وأما المرحلة الثانية، فهي مرحلة الإحساس بالشخصية الفردية وبالاستقلالية. وقد تباينت أثناءها المسافة الفاصلة، بين ضمير المتكلم الجمع "نحن"، وضمير المتكلم المفرد "أنا". حيث تزامنت هذه المرحلة، مع بلوغه سن المراهقة، وبداية الإحساس بالجسد، وفوران الغرائز من الناحية البيولوجية، وبمرحلة العزلة والتساؤل والحيرة، ووضع قيم مجتمعه الدينية والفكرية والاجتماعية موضع الاختبار، إذ يقول مستحضرا خذلان العذراء له، لما تضرع إليها، كي تغير أوضاع الأسرة والحي: "ولقد طلبت من العذراء ذلك طويلا، ولم يتغير حينًا. وقصصت ذلك على شاب من الحي، كان سجينًا في حلب، فقال: "لو كان الدعاء يغير أحوال الناس والأحياء، لتغير منذ زمن بعيد. أمك جاهلة. أما أنت فابن مدرسة. وعليك بدلا من أن تطلب، إلى العذراء أن تغير الحي أن تغيره بنفسك." (115) ولقد تجسّد التباين بين الفردي والجماعي، في الموقف من المظاهرة العمالية في مدينة إسكندرون، التي احتدمت فيها المواجهة بين المتظاهرين، وقوات الجيش والدرك. وانشطر ضمير الـ"نحن" المعبر عن العائلة في مجملها، إلى ضمير الـ"أنا" المشارك في المظاهرة، والمتحمس لمطالبها، والمتعاطف مع ضحاياها، وضمير "هو" المعبر عن الأب الرافض لهذه التّصالات العمالية، فيقول معبرًا عن بداية إحساسه بفرديته، واستقلال شخصيته: "ولقد فكرت بوالدي طويلا، وتساءلت: هل هو كسول خامل أناني عاجز؟ ولم أتوصل إلى جواب قاطع. كنت أحسبه شجاعا، وأنه مستعدّ لمقاومة الشرّ، ولمشاركة رجال الحيّ آلامهم. فإذا هو يحيب آمالي جميعا، ممّا جعلني حزينا،

غير قادر على التّوم، أو البقاء في البيت أو الكلام معه." (116) ولقد ساهمت ظروف التّرحيل القاهرة، من لواء إسكندرونة إلى اللاذقية، في تحسيسه بفرديته، وباختلافه عن العائلة، وبضرورة تحمّل مسؤوليته الفردية، في مواجهة واقعه الفردي والعائلي، في ظلّ سوء تدبير والده، وبألا تكون العائلة عالة على أعمامه، لذلك طالب والدته بالبحث عن بيت مستقلّ: "كنت قد طلبت من أمّي، أن تبحث عن بيت بأسرع ما تستطيع." (117) فضلا عن تحمّل مسؤوليته الفكرية والحزبية، في تحريك الأوضاع السياسية الرّائدة في اللاذقية، في ظلّ تقصير حزبه وخمول مناضليه.

وأما المرحلة الثالثة فهي مرحلة اختبار أفكاره الثّورية، في ضوء الممارسة العملية. فلم يكن المترجم لذاته قبل الوصول إلى قرية "ح" التي تستقطب جلّ الأحداث السّير ذاتية في "القطاف" سوى شابّ متحمّس ومندفع. ولم يكن الوعي التّضالي، الذي حصّله في إسكندرونة سوى أفكار نظرية، ومفاهيم ومصطلحات تتعلّق بالحرية والعدالة والمساواة، ومبادئ ثورية تخصّ العمّال، وتتنصر لهم في نضالهم التاريخيّ ضدّ مستغليهم. ولطالما قرأ المترجم لذاته عن الصّراع الطبقيّ، ولم يعرفه. ولطالما عاين المواجهة بين الفلاحين أو العمّال ومضطهديهم، لكنّه لم يجرب هذه المواجهة الفعلية. ولئن كان مطلعاً على أملاك المستثمرين الأوروبيين في إسكندرونة، ومواكبا لمعاناة العمّال في الميناء وسكّة الحديد، فإنّه لا يعرف أملاك إقطاعي واحد في ريف اللاذقية: "كلّ هذه القرى لهم! (...) الرّيتون يغطي هذه الأنحاء يحتاج الإنسان أسبوعاً كي يقطعها (...) والباقي أراضي فلاحية مخصّصة للحبوب." (118) ولم يكن يعرف نفوذ العائلات الإقطاعية، التي تستمدّه من تأثيرها الواسع في الحكومة، ولذلك يقول: "إذا قلت بيت "ف" قلت الحكومة فمن يجرؤ على سرقة

الحكومة؟ الخواجة "د" دولة إذا دخل السّراي ارتجّت تحت أقدامه." (119) وفي المقابل، لم يكن عارفا بفقر الفلاحين وجهلهم وقهرهم، ولذلك يقول: "لقد حسبت في إسكندرونة، أنّ العامل وحده هو المستغلّ. وها أنا أكتشف في هذا الرّيف، أنّ الفلاح أشدّ منه بؤسا." (120) وبما أنّ الماركسيّة تعتبر، أنّه لا نظريّة ثوريّة دون ممارسة عمليّة ثوريّة، وبأنّ النظريّة الثوريّة، لا تكتسب قيمتها وجدارتها إلّا بعد ممارستها، في المجال الاجتماعيّ، فإنّ رحلة المترجم لذاته، إلى ريف اللاذقيّة مناسبة، لاختبار أفكاره ومبادئه التي آمن بها، وفرصة مناسبة لخوض الصّراع الطبقيّ، وتقييم الذات الثوريّة. إذ لا نظريّة ثوريّة، دون ذات ثوريّة مناضلة وصلبة. ولا قيمة لهذه الأفكار المهمة، التي يعتقد في صحتها إذا لم تجد من يفعلها.

لقد أبدى المترجم لذاته تحمّسه، لمشاركة العائلة قطف الرّيتون، مدفوعا بجمال الرّيف وحبّ التنزّه. وما إنّ أنهى العمل في اليوم الأوّل، حتّى أدرك أنّ العمل في الرّيف ليس رياضة أو تنزّها، بل شقاء وألما: "لأنّ ظهري من القرفصة والانحناء راح يؤلني عند الحقوين. خيل إليّ أنّ الكليتين قد تضرّرتا. فهما تؤلمانني." (121) وأنّ الرّيف ليس جمالا ومنزّها، بل هو مجال للمعاناة والخطر. ومن أبرز مظاهر الخطر الثّعابين المتربّصة بالقاطفين. وقد أربعه أحدها: "وأدخل الرّعب إلى صدري على نحو أشدّ. فألقيت المرواط، ورحت أصرخ." (122) وما إنّ عاد إلى بورة الرّيتون مساء، وشاهد الشّوباصي القائم على أملاك الإقطاعيّ يعنّف الفلاح صخر، حتّى أصابه الرّعب: "كانت في يده عصا جبليّة غليظة، وفي كتفه بندقيّة." (123) وما إنّ شاهد الوكيل، وهو يتحرّش بالفلاحات، حتّى اعتراه الخجل والارتباك فتوارى بعيدا. ثمّ عاين تعمّد الوكيل الغشّ في الميزان، مستغلا أُميّة الفلاحين، فغضّ النّظر متألّما.

إنّ بورة الزيتون هي مجال، يتمشهد فيه الصّراع الطبقيّ، بين الفلاحين الفقراء ووكلاء الإقطاعيّ، ويتجسّد من خلالها الظلم والقهر والاستغلال، إضافة إلى أنّها مناسبة، لاختبار قيم المترجم لذاته، الذي يعاين ظلم طبقته، وهو صامت خوفاً وخجلاً. ولقد مثّلت حادثة "بدور"، التي اتّهمها الوكيل بسرقة الزيتون، اختباراً قاسياً لقيمه التي آمن بها. غير أنّه، جُئِن عن حمايتها ومناصرتها. لقد مثّلت هذه الحادثة وسابقتها، فرصة لنقد الذات الفردية، وتشخيص أمراضها، ومعرفة مواطن خللها وقصورها ومثاليّتها، فأدرك أنّ الواقع مخالف للأفكار، التي قرأها في الكتب والمدرسة، على حدّ قول أمّه: "أنت يا حبيبي ابن مدرسة، لكن الذي في الكتب، غير الذي في الحياة." (124) وتبيّن من خلال تجربته الواقعيّة، أنّ الشغل ليس رياضة، وأنّ الرّيف ليس منتزهاً، وأنّ أفكاره مجرد شعارات يحفظها ويردّها، وأنّه لم يمارس سوى تشخيص الواقع وتفسيره، والحال أنّه مطالب بتغييره. غير أنّه، عاجز عن تحويل أفكاره وقيمه إلى سلوك، لأنّه مهتّم من الدّاخل، ويعاني من الخوف والخجل والإحباط والرّهاب والحزن، ولأنّ هذه القيم السلبية المترسّبة في أعماق نفسه تعيق تطوّره. ولذلك كلّها، عليه أن يواجه أسباب ضعفه وخوفه، قبل أن يواجه أعداءه الطبقيّين. وما إن سيق والده إلى السّجن بسبب مناصرة الفلاحة "بدور" حتّى تجرّأ على الوكيل، وواجه ظلمه دون خوف، وكسر بذلك حاجز الرّهبة في نفسه. فيقول مستحضراً حالته النفسيّة: "أخيراً تجرّأت على الكلام، قلت ما يجول في خاطري، كسرت حاجز الرّهبة في نفسي." (125)

لقد ساهمت التجربة الفردية، في المجال الاجتماعيّ، ومصارحة الذات بأخطائها وضعفها، وامتلاك الجرأة على الفعل، في إعادة ترميم الفردية النفسيّة وتخليصها من

شوائبها. وأهلتها لتلعب دورا نضالياً متميّزا في بيئتها. فبواسطة التجربة العملية تحوّلت فرديته، من طور المثالية إلى طور الواقعية. وبفضل النقد الذاتي، اعترف بحشاشته وضعفه وخوفه وخجله. ومن يتعرّف إلى أخطائه يستطيع تجاوزها وإصلاحها. ومكّنته الجرأة على الفعل المنظم، من التحوّل من المهادنة إلى المواجهة، ومن الخوف إلى الشجاعة، ومن الإيمان بالمبادئ الثورية، إلى ممارستها في أرض الواقع، وتجسيدها في سلوك ملموس. وإذا الفردية النفسية الجديدة، هي فردية مثقفة ثقافة نظرية وعملية، وقادرة على تعديل أفكارها وسلوكها لتنسجم مع واقع مجتمعها. وهي إلى ذلك، تتميز بالجرأة والقدرة على المواجهة. وهذا ما يشير إليه بقوله: "منذ ذلك اليوم تبدّلت، كنت انطوائياً فصرت اجتماعياً. كنت متشائماً، فصار لديّ بعض الأمل."⁽¹²⁶⁾ لقد أضحي كائناً جديداً، يؤمن بما يفعل، ويفعل ما يقول.

إنّ ترميم هذه الفردية النفسية، وتهذيبها وتطويرها وتفعيلها، لا يمكن أن نردّه، إلى جهد المترجم لذاته دون سواه. بل نردّه أيضاً، إلى جهود الجماعي العائلي والمدرسي والحزبي... ثمّ إنّ هذا النضج، الذي أضحت عليه هذه الفردية، ما كان له أن يتمّ، بفعل العزلة والتأمل والقراءة المستمرة وحدها. بل تحقق بالممارسة العملية الفردية داخل الميدان الاجتماعي، حيث يحتدم الصراع، ويختبر الفكر، وتتصلّب الإرادة، وتتسع التجربة، وتتضح الرؤية. وهذا ما أهله لبلوغ مرحلة أخرى، أكثر أهمية وأشدّ خطورة.

وأما المرحلة الرابعة فقد تميّزت بجملة من الصفات، التي أهلتها للفعل في الواقع، ومكّنته من تقديم مشروعه السير ذاتي للمتلقي. ومن هذه الصفات المميّزة أنّه مثقف

في مجتمع أمي، وأنّ ثقافته واقعيّة وثيقة الارتباط بواقع المجتمع السّوري. وأنّ فرديّته النفسية تتميز بالتّوازن والتّناغم، بين القيم الجديدة التي تؤمن بها، والسلوك العمليّ الذي يكرسها في الواقع. وبأنّ هذه الفردية التّفسيّة، قد بلغت درجة عالية من النّضج، للتّلازم بين تطوّر معارفها النظريّة، وتعمّق خبرتها الميدانيّة بواقعها الاجتماعيّ. والأهمّ من كلّ ذلك، أنّها ملتزمة بخدمة قضيتها. وتمتلك مشروعا تنويريّا، يتمثّل في منح الرّؤية للنّاس. وهذه الصّفات مجتمعة، جعلتها تتطلّع إلى الفعل التّنويري، في واقع اجتماعيّ اشتدّ ظلامه. فما مضامين هذا المشروع السّير ذاتي؟ وما الوسائط الفنيّة التي سيعتمدها، للتّواصل مع النّاس وللعمل في الواقع؟

انطلاقاً من كونه مثقفا ثقافة أدبيّة وسياسيّة واجتماعيّة، ومواظبا على التعلّم المستمرّ قراءة وكتابة، بدليل قوله: "وكنّت أكتب أشياء شبيهة بمواضيع الإنشاء. لكنّها تعبّر عن حياتي، وكنّت أعرضها على الأستاذ إلياس فيشجّعي".⁽¹²⁷⁾ فقد آمن بأهميّة الكلمة المكتوبة، في بناء الفكر وتكوين الوعي. واعتمدها وسيلة مثلى لتغيير الواقع، ومنح الرّؤية للنّاس. وقد اتّخذت هذه الكلمة المكتوبة أشكالا عديدة، ووسائط متنوّعة، وأجناسا مختلفة. أوّلها جريدة الحزب الشيوعي السّوري "صوت الشّعب" التي كان يطوف بها في أسواق اللاذقيّة لبيعها، أملا في تنوير النّاس. فكان ينقطع عن ممارسة الحلاقة، ويغلق دكانه، وينصرف لبيع الجريدة، فيقول: "غامرت بالنّزول إلى السّوق، وبيع الجريدة والمناداة عليها بنفسي".⁽¹²⁸⁾ ثمّ شرع في كتابة الخطب السياسيّة، التي ستلقى في المظاهرات المتلاحقة ضدّ فرنسا. فترفع من وعي النّاس بمخاطر الاحتلال. وكان يغلق عليه باب دكانه ليلا، ويشرع في تحبير الخطب، بدليل قوله: "وكنّت أزعّم لنفسني أنّي نائر، فأكتب الخطابات، التي ستلقى في

المظاهرات ضدّ فرنسا، في اليوم التالي." (129) ثمّ تحوّل عن كتابة الخطب السياسيّة، إلى كتابة العرائض الاحتجاجيّة ضدّ الاستعمار الفرنسيّ، وسياسة الحكومة المتحالفة معه. ويرى فيها إضافة إلى التّظاهر ضدّ فرنسا، نوعاً من الكفاح ضدّ الظلم، فيقول: "بل كانت الكتابة، إضافة إلى التّظاهر والملاحقة والسّجن نوعاً من الكفاح." (130) وهكذا ساهمت الكتابة المقاومة في منح الرّؤية للنّاس.

لم تكن جهوده الكتابيّة، المتردّدة بين أجناس عديدة، بمنأى عن القراءة المتواصلة للصحف المحليّة والوطنية، وللمجلّات المختصّة بالأدب والتّاريخ، كمجلّة "ألف ليلة وليلة" لصاحبها كرم ملحّم كرم ومواكبته للمعارك الأدبيّة، بين دعاة التّقليد ودعاة التّجديد في الأدب، كالمعارك الأدبيّة بين كرم ملحّم كرم وإلياس أبي شبكة، أو الاحتفاء بالإصدارات الجديدة، لأدباء لهم صيتهم في تلك المرحلة، كتوفيق الحكيم، بدليل قوله: "وصول كتب توفيق الحكيم، التي أحدثت دوياً عند صدورها فاشتريتها واحداً بعد آخر." (131) وقد دفعه شغفه المتزايد بالأدب والفكر، إلى إرسال بعض أقاصيصه، إلى الصحف والمجلّات، أملاً في نشرها بين القراء، وكم سرّه نشر قصّته القصيرة الأولى في جريدة "بردى" لصاحبها منير الرّيس، وعليها اسمه. فيستعيد ذلك الشّعور قائلاً: "وكدت أرقص طرباً، وأنا أرى قصّتي منشورة، ومذيلة باسمي." (132) ثمّ لم يلبث أن استماله العمل الصحفيّ، عند انتقاله إلى دمشق سنة 1948. فامتدّه مدّة 3 سنوات، تردّد أثناءها بين خطة محرّر، ومشرف على صفحات أدبيّة، ورئيس تحرير. واشتغل بكتابة المقال الصحفيّ. وأفاد منه لاحقاً في الكتابة الروائيّة. وقد تمكّن في هذه الأثناء من التعرّف، إلى الكتاب

والصحافيين. وترسّخت قدمه في المجال الثقافي والإعلامي، بدليل قوله: "وكنّت قد أصبحت صحفياً معروفاً." (133) وتطوّر تأثيره في واقع الفكر والناس.

لقد تمثّلت فاعليّة المترجم لذاته، أولاً في تأثيره المحدود في المتلقّي، واستنهاض همّته، وتحريضه على تغيير واقعه بوسائط عديدة، من أهمّها الجريدة الحزبيّة، والخطب والعرائض السياسيّة، والأغنية والقصيدة والقصة القصيرة والمقال الصحفيّ. وثانياً، في تأثيره الواسع والعميق بواسطة الرواية، التي نشرها سنة 1954 وهي التي سيتفرّغ لكتابتها بقيّة العمر، وبواسطة سيرته الذاتيّة، التي اختار لها أسلوباً مختلفاً في الكتابة، يقوم على التّضمن والتّداخل، بين السّيرة الذاتيّة والسّيرة. فقد ضمّن سيرته الذاتيّة في سيرة عائلته. وضمّن سيرته الذاتيّة وسيرة عائلته في سيرة الشعب السّوريّ، الذي يكافح في سبيل الحياة الكريمة. وبذلك أضحى المترجم لذاته يُعرّف بمشروعه التّنويريّ، الذي ينهض على إرادته الحرّة والمسؤولّة. (134)

وظائف الفردية النفسية:

لقد أنتجت الهوية السردية، التي بنتها السّيرة الذاتية لحنا مينة، هويّة نصيّة معبّرة عن حياة كاتبها. وهي الهوية التي استقرّت في ذهن المتلقّي. وحلّت محلّ الهوية الواقعيّة للكاتب، وصارت هي المعبر عن حقيقة وجوده. ولقد منحته هذه الهوية شكله الإنسانيّ ووحدة وجوده. وكشفت الثّابت والمتحوّل في شخصيّته. ومن الثّوابت النّامية والمتطوّرة، في هذه الهوية السردية البعد النّفسيّ. وهو محرّك هذه الهوية وصانع وعيها. وتمثّل هذه الفردية النفسيّة حجر الزّاوية، في المشروع السّير ذاتي لحنا مينة. ذلك أنّ السّيرة الذاتية جنس أدبيّ، يقوم على إعادة تمثيل الماضي

واستعادته، بواسطة التذكّر والاسترجاع، واعتبار هذا الماضي وضعيّة دالّة، على مسار تحوّل الفردية النفسية للمترجم لذاته، من طور الانسحاق والدوبان والتلاشي، إلى طور الخبرة الفعلية والتأثير العميق. ذلك أنّ المسار الذي اختاره الكاتب حياة الطفل الذي كان، في حبكة سيرته الذاتية، هو البداية المأزومة السائرة، إلى الانفراج الجزئيّ في بداية الشّباب، ولتحوّل في النهاية، مع صدور رواياته الأولى وكتابة سيرته الذاتية إلى انفراج كليّ، نزول فيه الأزمة. فاختيار الكاتب كان منصباً على إعادة تمثيل الأزمة النفسية الشّاملة، التي عاشها الطفل في علاقته المتوتّرة بجسده وهويّاته وبيئته، موظفاً في ذلك كلّ طاقات اللّغة على التعبير والتّصوير، ومستثمراً خبراته الرّوائية في نحت هذه الفردية النفسية، التي تحاصرهما الأزمات والأوجاع من كلّ الجهات، لغاية التأثير في المتلقّي، وإقناعه بحجم الظلم الطبقيّ، الذي هيمن على الواقع السوري، وبقدرة ذلك الطفل الذي كان، على اختلاق الأمل من اليأس، بدليل قوله: "فأنا كما أعرف أن أياس، أعرف صباح كلّ يوم أن استنبت الأمل من اليأس نفسه. وبهذا أتعلّل وأعيش."⁽¹³⁵⁾ وبقدرته على التحمّل، واستيعاب كلّ أنواع القهر والظلم في مرحلة مبكّرة، ومقاومتها بالتعلّم الذاتي، والتكوّن المعرفيّ والتأمّل، والتّساؤل عن دور الإرادة الفردية، في مواجهة الظلم والقهر، أملاً في تغيير الذات، وإصلاح الواقع. فانتصرت الإرادة الفردية على ظروف البؤس والقهر. وتحوّل الطفل المنسحق طبقياً، إلى شابّ صلب فاعل في واقعه. وانتهى إلى أديب وحامل قلم، يوظف كتاباته عامّة وسيرته الذاتية خاصّة، لتنوير الناس ومنحهم الخبرة. وقد راهن حتّى مينة عبر تواصله مع المتلقّي، على تضمين مشروعه السّيرذاتي جملة من الوظائف، كالوظيفة التّربويّة والمعرفيّة والإيديولوجيّة...

أما الوظيفة التّربويّة، التي تضطلع بها الفردية النفسية المتطوّرة، من طفل معدم، إلى كاتب مشهور ومؤثّر، وقدوة في بناء الذات وإفادة الآخرين، فهي أنّه بإمكان الطفل الضّعيف الفقير الخجول الخائف الغارق في الذلّ والعار تجاوز عوائقه كلّها، متى تعلّم القراءة والكتابة، وحوّل هذه القدرة التّعليميّة البسيطة، إلى اقتدار على التعلّم الذاتيّ المستمرّ، وفرصة لتحصيل المعارف، من الكتب والمجتمع وعناصر الطبيعة وتاريخ الإنسانيّة، ووظف معارفه فيما يمتعه ويفيده وينيّ فرديّته. وأمّا الوظيفة المعرفيّة فتتمثل في تمجيد مشروعه السّير ذاتيّ لطلب العلم. فهو يعتبر نفسه بطلا معرفيّاً، تحدّى ظروفه القاسية، وكافح من أجل بناء ذاته بناء معرفيّاً وجماليّاً وقيميّاً، وعلم نفسه بنفسه، فأحسن تعليمها وتهذيبها. ولم يمنعه ضعف تحصيله العلميّ الإشهاديّ، من تجويد تعلّماته، وتطوير معارفه. ولم يصدّه عدم الالتحاق بمقاعد الجامعة عن إنتاج الفكر، والتميّز في الإبداع الأدبيّ. وأمّا الوظيفة الإيديولوجيّة فتتمثل في دعوته الخفيّة، إلى تبني منهج فكريّ تقدميّ، يؤمن بقيمة الفرد، ويعلمه بحبّ ورفق، ويمكّنه من تطوير قدراته وتحقيق ذاته، ومن فهم تناقضات واقعه، ويمنحه الوسائل الفكرية الممكنة للتّغيير والتّطوير. والمشروع السّير ذاتيّ لحنا مينة في المحصّلة هو تحريض ضمنيّ، على الاقتداء بمنهجه في بناء الذات وتنميتها، وتحقيق نضجها، وتوسيع خبراتها، وتعميق إيمانها بدورها الفاعل، في تجاوز واقع الجهل والفقر والقهر، إلى التّحديث والتّطوير.

الإحالات والهوامش:

- (1) حنا مينه: بقايا صور، دار الآداب، بيروت، ط 8، 2008.
- المستنقع، دار الآداب، بيروت، ط 1، 1977.
- القطاف، دار الآداب، بيروت، ط 4، 2006.
- (2) حنا مينه: كيف حملت القلم، دار الآداب، بيروت، ط 1، 1986.
- (3) حنا مينه: هواجس في التجربة الروائية، دار الآداب، بيروت، ط 1، 1982.
- (4) M.Merleau-Ponty, Signes, éd. Gallimard 1960, P 290
- (5) مادة (حسس) معجم المصطلحات العلميّة والفنيّة، ص 163 (دار الجيل - دار يوسف الخياط) لسان العرب، 1988.
- (6) عبده الحلو: الوافي في تاريخ الفلسفة العربيّة، بيروت، دار الفكر اللبناني، ط 1، 1995، ص 45.
- (7) مادة (شعر) معجم المصطلحات العلميّة والفنيّة، المرجع السابق، ص 357.
- (8) حنا مينه: بقايا صور، المصدر السابق، ص 98.
- (9) م.ن، ص.ن.
- (10) م. ن، ص ص 162-163.
- (11) م. ن، ص 227.
- (12) حنا مينه: المستنقع، المصدر السابق، ص ص 18-19.
- (13) حنا مينه: بقايا صور، المصدر السابق، ص ص 264-265.
- (14) حنا مينه: القطاف، المصدر السابق، ص 187.
- (15) م. ن، ص 9.
- (16) م. ن، ص.ن.
- (17) م. ن، ص 274.

- (18) م . ن، ص 63.
- (19) حنا مينة: المستنقع، المصدر السّابق، ص 95.
- (20) حنا مينة: بقايا صور، المصدر السّابق، ص 237.
- (21) م . ن، ص 254.
- (22) حنا مينة: المستنقع، المصدر السّابق، ص 45.
- (23) م . ن، ص 100.
- (24) م . ن، ص 89.
- (25) م . ن، ص 44.
- (26) م . ن، ص ص 104-105.
- (27) م . ن، ص 111.
- (28) م . ن، ص 207.
- (29) م . ن، ص 105.
- (30) حنا مينة: بقايا صور، المصدر السّابق، ص 230.
- (31) حنا مينة: القطار، المصدر السّابق، ص 297.
- (32) م . ن، ص 12.
- (33) م . ن، ص 301.
- (34) م . ن، ص 106.
- (35) مادّة (مزج) معجم المصطلحات العلميّة والفنيّة، المرجع السّابق، ص 634.
- (36) مادّة (سلك) معجم المصطلحات العلميّة والفنيّة، المرجع السّابق، ص 325.
- (37) حنا مينة: القطار، المصدر السّابق، ص 72.
- (38) حنا مينة: المستنقع، المصدر السّابق، ص 31.
- (39) م . ن، ص 7.
- (40) م . ن، ص 32.

- 41) حنا مينه: بقايا صور، المصدر السابق، ص 220.
- 42) م . ن، ص 231.
- 43) ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، ترجمة: مُحمَّد الهلالي وعزيز لزرق، ط1، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 2010، ص 168.
- 44) حنا مينه: بقايا صور، المصدر السابق، ص 66.
- 45) ابن منظور: مادة (لقب) لسان العرب المحيط، ج5، بيروت، دار الجيل، ص 383.
- 46) حنا مينه: بقايا صور، المصدر السابق، ص 68.
- 47) م . ن، ص 109.
- 48) م . ن، ص . ن.
- 49) حنا مينه: المستنقع، المصدر السابق، ص 200.
- 50) م . ن، ص 201.
- 51) ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، المرجع السابق، ص 298.
- 52) حنا مينه: بقايا صور، المصدر السابق، ص 88.
- 53) م . ن، ص 89.
- 54) م . ن، ص 127.
- 55) م . ن، ص 197.
- 56) م . ن، ص 196.
- 57) م . ن، ص 241.
- 58) حنا مينه: المستنقع، المصدر السابق، ص 36.
- 59) حنا مينه: بقايا صور، المصدر السابق، ص 242.
- 60) م . ن، ص . ن.
- 61) حنا مينه: المستنقع، المصدر السابق، ص 374.
- 62) حنا مينه: القطار، المصدر السابق، ص 18.

- (63) حنا مينة: المستنقع، المصدر السابق، ص 147.
- (64) م . ن، ص 109.
- (65) حنا مينة: القطاف، المصدر السابق، ص 277.
- (66) م . ن، ص 18.
- (67) م . ن، ص 77.
- (68) م . ن، ص 277.
- (69) م . ن، ص 54.
- (70) م . ن، ص 117.
- (71) حنا مينة: المستنقع، المصدر السابق، ص 97.
- (72) حنا مينة: بقايا صور، المصدر السابق، ص 244.
- (73) م . ن، ص 181.
- (74) حنا مينة: القطاف، المصدر السابق، ص 13.
- (75) م . ن، ص 75.
- (76) حنا مينة: المستنقع، المصدر السابق، ص 37.
- (77) حنا مينة: القطاف، المصدر السابق، ص 23.
- (78) م . ن، ص 58.
- (79) حنا مينة: المستنقع، المصدر السابق، ص 43.
- (80) حنا مينة: القطاف، المصدر السابق، ص 191.
- (81) م . ن، ص 161.
- (82) م . ن، ص 27.
- (83) م . ن، ص 10.
- (84) حنا مينة: المستنقع، المصدر السابق، ص 92.
- (85) حنا مينة: القطاف، المصدر السابق، ص 72.

- (86) م . ن، ص ص 160-161.
- (87) حنّا مينه: المستنقع، المصدر السابق، ص 66.
- (88) م . ن، ص 18.
- (89) حنّا مينه: القطاف، المصدر السابق، ص 161.
- (90) م . ن، ص 160.
- (91) م . ن، ص 161.
- (92) حنّا مينه: المستنقع، المصدر السابق، ص 374.
- (93) م . ن، ص 97.
- (94) م . ن، ص 147.
- (95) م . ن، ص ص 244-245.
- (96) حنّا مينه: بقايا صور، المصدر السابق، ص 357.
- (97) حنّا مينه: المستنقع، المصدر السابق، ص 246.
- (98) م . ن، ص 247.
- (99) م . ن، ص 258.
- (100) م . ن، ص 251.
- (101) م . ن، ص 12.
- (102) حنّا مينه: القطاف، المصدر السابق، ص 193.
- (103) م.ن، ص 63.
- (104) م.ن، ص. ن.
- (105) م.ن، ص 72.
- (106) م.ن، ص 26.
- (107) حنّا مينه: بقايا صور، المصدر السابق، ص 261.
- (108) م.ن، ص 296.

- (109) حنا مينة: المستنقع، المصدر السّابق، ص 94.
- (110) حنا مينة: القطاف، المصدر السّابق، ص 194.
- (111) م.ن، ص 248.
- (112) حنا مينة: بقايا صور، المصدر السّابق، ص 359.
- (113) م.ن، ص 70.
- (114) م.ن، ص 227.
- (115) حنا مينة: المستنقع، المصدر السّابق، ص 144.
- (116) م.ن، ص 311.
- (117) حنا مينة: القطاف، المصدر السّابق، ص 34.
- (118) م.ن، ص 72.
- (119) م.ن، ص 71.
- (120) م.ن، ص 105.
- (121) م.ن، ص 98.
- (122) م.ن، ص 100.
- (123) م.ن، ص 82.
- (124) م.ن، ص 78.
- (125) م.ن، ص 248.
- (126) م.ن، ص 194.
- (127) حنا مينة: كيف حملت القلم، المصدر السّابق، ص 11.
- (128) م.ن، ص 18.
- (129) م.ن، ص 15.
- (130) م.ن، ص 14.
- (131) م.ن، ص ص 18-19.

132) م.ن، ص 17.

133) م.ن، ص 21.

134) Jean Paul Sartre, Critique de la raison dialectique, éd. Gallimard, 1960, P 95.

135) حنا مينه: القطف، المصدر السابق، ص 43.

المراجع:

- ابن منظور ل. ا. ا. (1988). مادة (لقب). بيروت: دار الجيل.
- الحلوع. (1995). الوافي في تاريخ الفلسفة العربية. بيروت: دار الفكر اللبناني.
- كاريل أ., الهلاي م., & لزرع ع. (2010). الإنسان ذلك المجهول. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
- معجم المصطلحات العلمية والفنية . ل. ا. (1988).
- مادة (سلك). بيروت: دار الجيل - دار يوسف الخياط.
- مادة (حسس). بيروت: دار الجيل - دار يوسف الخياط.
- (شعر). بيروت: دار الجيل - دار يوسف الخياط.
- (مزج). بيروت: دار الجيل - دار يوسف الخياط.
- مينه ح. (1977). المستنقع. بيروت: دار الآداب.
- مينه ح. (1982). هواجس في التجربة الروائية. بيروت: دار الآداب.
- مينه ح. (1986). كيف حملت القلم. بيروت: دار الآداب.
- مينه ح. (2006). القطف. بيروت: دار الآداب.
- مينه ح. (2008). بقايا صور. بيروت: دار الآداب.
- Merleau-Ponty, M. (1960). *Signes*. Paris: Gallimard.
- Sartre, J. P. (1960). *Critique de la raison dialectique*. Paris: Gallimard.

References :

- Ibn Manzur L. a. a. (1988). Article (title). Beirut: Dar Al-Jeel.
- Al-Helou A. (1995). Al-Wafi in the history of Arab philosophy. Beirut: Dar Al-Fikr Al-Lebanese.
- Karel A., Al-Hilali M., & Lazraq A. (2010). Man is the unknown. Casablanca: Toubkal Publishing House.
- A dictionary of scientific and technical terms. to. a. (1988).
 - Material (wire). Beirut: Dar Al-Jeel - Dar Youssef Al-Khayyat.
 - Material (sense). Beirut: Dar Al-Jeel - Dar Youssef Al-Khayyat.
 - (Poetry). Beirut: Dar Al-Jeel - Dar Youssef Al-Khayyat.
 - (mix up). Beirut: Dar Al-Jeel - Dar Youssef Al-Khayyat.
- Minh H. (1977). Swamp. Beirut: Dar Al-Adab.
- Minh H. (1982). Obsessions in the narrative experience. Beirut: Dar Al-Adab.
- Minh H. (1986). How did you hold the pen? Beirut: Dar Al-Adab.
- Minh H. (2006). The picking. Beirut: Dar Al-Adab.
- Minh H. (2008). Photo remains. Beirut: Dar Al-Adab.
- Merleau-Ponty, M. (1960). *Signes*. Paris: Gallimard.
- Sartre, J. P. (1960). *Critique de la raison dialectique*. Paris: Gallimard.